مختارات من تاريخ العرب والاسلام





تأليف :

عمر ابو النصر

منشورات

مكتبة المعارف في بيروت

طبعة جديدة
مزيدة ومنقحة
آذار ١٩٥٦

مقدمة الكتاب

تمتاز هذه الطبعة الجديدة عن الاولى في كونها تختلف اختلافاً بيناً في تقسيمها وتبويبها ، وفي تفصيل ما اجملته،والتبسط فيما مررت به مروراً كريماً ، وفي اني قد عمدت الى اسلوبها ، فأسلست من قياده ، وألنت من كلماته ، وأجريته سائغاً هيناً ندياً ..

ولقد كنت لأعوام خلت،زاهداً كل الزهد فيوصف الاشخاص ونقد الرجال الذين لعبوا الأدوار الخطيرة فيفجر الاسلام، وفي هذه الفترة الجاهمة ، التي تقطعت بين مصرع الخليفة الثالث عثمان بن عفان، وقيام المروانيين ..

وكان مرد هذا .. جفائي عن بحث كل ما يتعلق بالفتن الاسلامية ، والخلافات الداخلية ، التي تصعّدت شرقاً وغرباً في امصار الامبراطورية العربية الناشئة ، فأوقفت موجة الزحوف ، وفرقت الامة الواحدة الى احزاب وشيع ، وأضاعت على العرب فرصة مثلى لم تعوضها الفتوحات التي أتت بعدها على الوجه الاكمل..

ولا اكتم القارىء اني لم اكن المؤرخ الفريد الوحيد الذي تولاه هذا الاشفاق ، وغلبه الوجل ، حين تناول هذه الفترة من التاريخ

يريد ان يسويها بحثاً رضياً عادلاً .. فقد وقف المؤرخون السابقون مثل موقفي ، وداخلهم الكثير من الاشفاق والتردد حين تناولوا فجر الاسلام بالبحث والتمحيص ، فالتزموا جانب الادب،وأسبغوا على الذين لعبوا الأدوار العصيبة لوناً من القداسة ،فلم يجرأ احدهم على انتقاد احد منهم ، وذهب الاعتقاد بين الناس الى ان من يفعل ذلك يأثم ويضل ، فتشوهت والحالة هذه معالم التاريخ ، وضاعت سبل النقد،فلم نعد نفرق بين الصالح والطالح وبين المخطىء والمصيب .

*

والواقع الذي لا شك فيه ، ان الرجال الذين عاشوا في عصر الخلفاء الراشدين كانوا بشراً مثلنا ، لم يأمرنا الله بعصمتهم ، ولا نزل القرآن الكريم بأنهم براء من كل عيب ، ولا نزهتهم السنة عن كل خطأ ..

لقد تقاتلوا بالسيوف ، وتواثبوا الواحد على الآخر ، واتهموا بعضهم بعضاً ، بالكفر والمروق عن الدين ، وقامت بينهم الحروب والمجازر ، وذهب في هذه الحروب والثورات عشرات الالوف من المسلمين ، فمن المسؤول والحالة هذه عن هذه الدماء البريئة ،والمجازر المرعبة ، وهل يجب ان نؤمن بما نقله السلف الينا ، من ان قاتل هؤلاء جميعاً ومقتولهم في الجنة ؟؟

*

وفي ذات امسية ، قرأت فصلاً للمستشرق الالماني (نولدكه) يصف فيه قصة الابطال القرشيين الذين ورثوا الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، والذين لم يسبق لهم ان كانوا قواد جيوش ،

وزعماء زحوف ، وامراء امصار ، وحكام عواصم ، ثم ينقلبون بين ليلة وضحاها الى ان يكونوا كذلك ، والى ان يكونوا قواداً وحكاماً وامراء من الطراز الأول الرفيع ، فاستفزني هذا الاطراء واخذت أصعّد النظر في دنيا العرب ، ارتاد الماضي فلا أمل الطواف والتنقيب في أثاره ومخلفاته ، وكلما امعنت في الطواف في دوارسه وأطلاله لا اسأم ولا أمل ، واذا ما أوغلت في البحث والتحقيق ، تراءت لي على جوانب هـذا الماضي ، اسماء عجيبة ، وشخصيات غريبة ، وشهداء ماتوا في سبيل الله ومحمد والوحدة العربية .

وكثيراً ما كان ينتهي بي الايغال الى الوقوف على اجـداث الابطال ، وشهداء الزحوف ، فأشم فيها ذلك العطر الذي لا تزال بقية منه تترقرق على خمائل الآس في غوطة دمشق ، وباسقات النخيل في العراق ، ومختلف الازهار في حـدائق غرناطة ، وعلى ارض الصحراء التي تقطعت بين مصر والاندلس ، وعلى حدود الهند والسند ، ثم أفكر في هؤلاء الابطال الذين خلقوا الدنيا خلقـاً جديداً ، وتركوها عامرة بالظلال والافياء ، والعدل والحريات .

بارك الله في هذه الاسر العربية من قريش وغير قريش ، التي حملت الينا ألوية البطولة والشهادة والتضحية من مشرق الارض الى مغربها ، والتي تركت لنا قصة جميلة عذبة ، هي قصة الامة العربية وقصة الاسلام المتواضع ، قصة ألف فصولها عرب ما عاشوا كما عاش الناس ، ولا ماتوا كما مات الناس ، ذلك أن الله شرّف هـذه العصابة من العرب وكرّمها بان جعل النبوة والوحي والالهام في منازلها ، فلم يشأ لها حظ الرجل العادي من خلقه ، وانما أراد لهـا

الفتح والاعمار والاستشهاد ، ولولا ذلك مـــا كانت العربية ولا كان الاسلام .

ولقد وصفت فيما سبق من مؤلفاتي قصة هؤلاء الابطـــال ، فوصفت نشأتهم فتياناً يرعون الابل في صحراء مكة وحول المدينة، ثم ترسمت آثارهم يوم راحوا يقودون الجيوش ويبنون المـــدن ، ويدكون دنيا الفرس والروم ، ثم يأبون ان يموتوا على فراشهم وفي منازلهم وخيامهم ، يفضلون على هذا كله ضربة السيف ، وطعنة الرمح .. في حومة الوغى وبين الملاحم ..

وكان لا معدى لي بعد هذا كله من التريث قليلاً ، والتفكير كثيراً ، فقد ذهب بي شرود الذهن الى ان هذا الجيل العربي الجديد لا يمت للماضي بصلة ولا نسب ، وكان يخيل اليّ احياناً ان هـــذا الشباب العربي قد قطع صلاته بكل ما هو عربي ، وانه يدلف في دنيا جديدة ، ويرضى بحياة ما كان لعربي ان يرضى بها ، او يسكت عنها، ثم وصلت بعد شيء من التفكير الى ان للامة التي تمتد جذورها في اعماق الازل ربيعاً وان طال الخريف ، والى ان ابناء الفاتحين الذين غيروا وجه الارض ، وحرروا موازين العدل ، سوف يعودون الى انفسهم ، وسوف يأتي يوم ـــ لا استبعد قربه ـــ يقرعون فيـــه ابواب تاريخهم الضخم ، وينفضون عن المعدن الكريم غبار الازل ، ويمسحون عن الجوهر الحر عبث العوادي ، ويعودون الى مكانهم من رأس الدنيا وصدر التاريخ ..

*

لقد كان بعض اصحابي يستشعرون شيئاً من القلق، ويتوقعون لي

الواناً من العنت ، لما رحت اسوي هـــذه الصفحات من تاريخ الخوارج كتاباً ، وحجتهم في ذلك ، عظيم شأن هذا البحث ودقته وما شمل الجماعة العربية الاسلامية في هذا العهد الذي احاول التأريخ له من تمزق واضطراب وفتن ، قد لا أوفق الى تصويرها بالاعتدال المفروض ، لما يعرفونه من ضيق صدري بهذه الاختلافات ، وكيف اقف منها موقفاً هو أقرب الى الشدة والقسوة مني الى القبول بالامر الواقع ، والمرور بالاخطاء مرّ الكرام كما فعل بعض المؤرخين من سالف ومعاصر ..

ولكني تجافيت عن هذا كله بما بذلته من ضبط النفس ، وبما رحت احاوله من انكار الحزبية والزهـــد في الرياء ، وبما ألزمت نفسي من الجري على سنن التاريخ الحديثة ، وبما رحت احاوله من تصوير الحوادث والوقائع تصويراً قومياً عربياً ، بعيداً عن التحزب والملق ..

وسيجد القارىء وهو يطالع هذه الصفحات من تاريخ الخوارج انه امام جماعة ارادوا بعث الجمهورية في الاسلام فلم يوفقوا ، مع ما بذلوه في سبيل فكرتهم هذه من تضحية وبسالة وثورات ...

وسيرى القارىء أيضاً ، انه امـــام ظاهرة من أخطر الظواهر التاريخية في تاريخ العرب والاسلام ، وانه امام ثورة في سبيل الحكم الجمهوري أثارت الحرب مدى نصف قرن من حياة الدولة الأموية ، وحاربت الامويين في كل موطن ومكان ، وبلغت منهم واثخنت في جيوشهم اكثر مما بلغته منهم حروب هذه الدولة مع البيزنطيين ، حتى تمكن الامويون منهم آخر الامر ..فقتلوهم وابادوهم ، فتفرقوا

في الارض ، وكأن القوم ما كانوا ..

وفيما يلي من فصول سيطالع القارىء كيف نشأ الخوارج وكيف ظهروا ، وكيف راحوا يدعون الناس لرأيهم ، ثم كيف حملوا السيف لنشر هذا الرأي ، وكيف تبسطوا في ارض الامبراطورية العربية ، وكيف سيطروا على اقليم غير يسير منها ، ثم كيف تمزقوا وانهاروا ، واسباب هذا ودوافعه .. في اسلوب سائغ وتقسيم جديد وتبويب حديث ، يصوّر احسن تصوير اخطر ثورة عسكرية في تاريخ العرب والاسلام ..

بيروت آذار ١٩٥٦

المؤلف

— ١ —

الشرارة

مسألة الخلافة

ينتهي عهد الفتوح الاسلامية العربية في اوائل خلافة عثمان بن عفان ، فلا يعود سيرته الأولى إلا ايام الوليد بن عبد الملك ،فتكون الدولة العربيه الاموية قد صرفت ما يقرب من خمسين سنة من حياتها القصيرة في الثورات والفتن والاختلافات الداخلية، بحيث عجزت في خلالها القوات العربية عن المضي في فتوحاتها الواسعة الاطراف ، على النحو الذي كانت عليه عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب ...

وكان سبب هذه الثورات الداخلية العديدة مسألة الخلافة ، وهل يجب ان تكون بالانتخاب أم بالوراثة ، وأصحاب الرأي الاول جماعة الخوارج وبعض الصحابة، وجمهرة كبيرة من المسلمين، واصحاب الرأي الثاني الشيعة انصار امير المؤمنين علي بن أبي طالب وآله ، الذين قالوا بامامة علي وأولاده بعده ، واعتبروا

الامامة جزءاً من الايمان لا يصح ان يفوض أمرها لجمهرة المسلمين .

ولقد ذكرنا ان بين من أيدوا نظرية الانتخاب جمهرة كبيرة من المسلمين ، وهذه الجمهرة وان لم تحمل السيف في سبيل تحقيق أغراضها السياسية هذه ، إلا أنها كانت قوية ، تؤيد خلافة على غرار خلافة الخلفاء الراشدين الاول ، يصار فيها الى اختيار أصلح العرب المسلمين وأفضلهم لهذا المركز الرفيع ...

هذا ما كان عليه الناس قبل ظهور الدولة الاموية ، فلما ظهر الامويون ، وتمكن معاوية بن ابي سفيان من تثبيت ملكه ،وتوحيد الامصار العربية تحت سلطانه ، ثم راح يختار يزيداً ابنه ليلي الامر من بعده ، ظهر في الدولة العربية حزب جديد يريد الخلافة ملكاً عضوضاً ، أيده بعض المسلمين ، وأنكره البعض الآخر ، وكان أشد الناس انكاراً له الخوارج والشيعه ، وكان الخوارج أسبق الناس الى انكار هذا الرأي قولا وفعلاً،فحاربوا الامويين باقصى مايكون من الشدة والعنف ، وهذا الكتاب وصف رائع لهذاالعراك السياسي، والصراع الدامي ، بين الامويين والخوارج ، حتى تمكن المهلب بن ابي صفرة وغيره من كبار القواد من تهوين امرهم ، وتمزيق احزابهم ، وتخفيف حماسهم ، فما عادوا يشكلون خطراً داهماً ، ولا قوة عسكرية مدمرة ...

مسألة التحكيم

ولقدظهر الخوارج اول ما ظهروا بعد معركة (صفين) التي دارت رحاها بين جند(علي) وانصار(معاوية) من اهل الشام ومن أيدهم من

العرب (٢٠ تموز ٦٥٧ ميلادية) ، وكاد يتم الفصل في هذه المعركة لجند علي ، لولا الحيلة التي توسل بها عمرو بن العاص لانقاذ الموقف الحرج ، فرفع جند معاوية المصاحف على أطراف الرماح ، ودعوا جند علي الى حكم القرآن فيما نشب بينهم من خلاف ، فرفض علي التحكيم اول الأمر ، ولكن قسماً كبيراً من جنده اكرهه على قبوله ، فقبله مكرهاً ...

واختلف علي مع جنده في اختيار مندوبه لهذا الاجتماع .. فاختار (علي) عبدالله ابن‌عباس ، واختار جنده ابا موسى الاشعري ، فكان‌قبوله باختيار ابي‌موسى وهناً جديداً في سياسته،وكان من أثر هذا الوهن الاختلاف الذي وقع بين الحكمين ايضا ...

وكان مندوب معاوية (عمرو بن العاص)،وهو من يعرف الناس مكراً ودهاء..وصار الاتفاق على ان‌يصارالى التحكيم في (أذرح)[1] وهي مكان بين معان وبطرا ، واشتهرت هذه البلدة النائية بهذا التحكيم الذي عقد فيها عندما اتفق المسلمون في صفين على اختيار مكان يتوسط الشام والعراق ، وسار اليها كل من الحكمين — ابو موسى الاشعري وعمرو بن العاص — والاول مندوب علي ... والثاني مندوب معاوية في اربعمائة رجل ...

كان عمرو بن العاص من أدهى العرب وأذكاهم ،يعرف مايريد، ويتحايل له ، وكان ابو موسى رجلاً ورعا تقيا ، تنازعه الشك منذ كان في الكوفة عاملاً لعثمان ثم لعلي في أحقية (علي) وخلافته ، فرضه انصار(علي)عليه‌ليبقيه في الكوفة ،كما فرضوا عليه بعدها ان

(١) محلة رومانية فخمة بها نبع تفيض مياهه وتنساب في شق من الأرض .

يبعثه حكماً عنه ، وكان من شأنه في الكوفة ويوم أشرف عليها أمير المؤمنين في طريقه الى البصرة قبيل معركة الجمل ، ان خذّل الناس عن مساعدة الامام القائم ، ودعاهم الى البقاء في منازلهم ، بحجة انها فتنة القاعد فيها خير من القائم ، فلا عجب وهذا حاله ان يتمكن ابن العاص من استغلاله على شكل مفضوح ، كان له أبعد الأثر في التاريخ وسياسة الدولة العربية المقبلة ...

دهاء عمرو بن العاص

وتؤكد المصادر التي بين أيدينا.. ان (ابن العاص) حاول إدخال الشك في قلب ابي موسى من حيث صلاحية الرجلين علي ومعاوية وأهليتهما للخلافة بعد اختلاف الناس فيهما ، ولا يبعد انه استغل هذه الناحية حتى حمل ابا موسى على التفكير معه في شخص آخر يكون اصلح للخلافة منهما ، فتجتمع عليه الكلمة التي تفرقت حولهما ، وحول أغراض كل منهما ...

ولم يكن ما تداول به الحكمان واضحاً ، ممهد المسالك ، محبوك الحدود ، ولم تعين المسائل التي أرادا معالجتها تعييناً محكماً ، حتى لا يصار الى بحث سواها ، واكتفيا بأن أعلنا للناس ان رائدهما ومرجعهما القرآن ، وهو ما صار الاتفاق عليه حين صار رفع المصاحف في معركة صفين من العودة الى القرآن في هذا الاختلاف الشائك الذي شجر بين علي ومعاوية ، ولكن اساس الاختلاف في الواقع لم يكن البحث عن قتلة عثمان ومعاقبتهم كما كان يدعي معاوية ، لان همه في الحقيقة كان المحافظة على سلطانه في الشام ، ونؤكد انه في هذه

الفترة من الزمن لم يكن يفكر في الخلافة او يدعيها ...

وكان العراقيون يرون ان الاجتماع ليس إلا مسألة شكلية ، وان فوز علي بن ابي طالب محقق ، لان أحداً لم يكن يفكر بان هناك من هو أفضل منه للخلافة والامامة ...

وأما أهل الشام فلم يحاربوا في سبيل معاوية ليكون خليفة او ملكاً ، وانما كانوا يحاربون دفاعاً عن امام صار قتله ظلما وعدواناً ، وأخبروا ان قتلته كانوا في جيش علي ، وان علياً يأبى معاقبتهم واجراء الحد الشرعي عليهم .. كما ان معاوية نفسه لم يكن قد حدّد دعواه ومطاليبه ، ولذلك كان همّ اهل الشام من التحكيم ان يعرفوا الى اي حد كانت تبعة علي في مقتل عثمان ، وهل هي تباعد بينه وبين الخلافة ؟؟

ولكن الحكمين لم يبحثا شيئاً من هذا ، ولا أدارا المناقشة حولها ، ولم يصدرا حكماً في كل ما عرضناه من وجوه الاختلاف ، وانما راحا يبحثان اموراً لم يكلفهما بها احـــد .. ولا فوضهما انسان بمعالجتها واصدار الحكم فيها ..

راحا يبحثان مثلاً ـــ وهذا من دهاء عمرو بن العاص وأحابيله ـــ اسماء اشخاص لا ناقة لهم في هذه الحرب ولا جمل ، ولا شأن لهم في امر التحكيم.. واخذا يدرسان فيما اذا كانوا يصلحون للخلافة ام لا.؟ وهذا شيء جديد لم يفطن له احد ، ولم تفكر به جماعة ، ولا راح يبحثه حزب من المسلمين.. لقد صار اختيار ابي موسى ليكون مندوباً عن علي في التحكيم ، ومن المفروض في مثله ان يدافع عن موكله ، وان يعمل لمصلحته ، واما ابو موسى فقد راح ودون استشارة موكله

يبحث عن شخص آخر ليحل محله ..

سمح لعمرو بن العاص ان يضع معاوية وهو عامل لا اكثر ولا أقل، في مرتبة علي الذي بايعته اغلبية المسلمين بالخلافة، وكان الناس لا يعرفون عن معاوية إلا انه رجل يطالب بدم عثمان، واهل الشام تبعوه على هذا الوجه، لا على انه يطالب بالخلافة او يزاحم علياً في سلطانه، وقد ساعد ابو موسى ـ ودون ان يشعر طبعاً ـ بمساواته علياً بمعاوية على نجاح الخطط السرية التي كان يحوكها عمرو بن العاص، وبعد ان أجهد (عمرو) ..ابا موسى باسماء اشخاص كثيرين لا يليق اكثرهم بمنصب الخلافة ـ كحل موفق لجمع المسلمين على امام واحد ـ خصوصاً بعد ان اقنعه ان علياً ومعاوية لن يجتمع عليهما الناس ابداً، وان بقاءهما بقاء للاختـلاف، ونذير بعودة الحرب، انتهى باقنـاعه بخلع علي ومعاوية معاً، وترك المسلمين وشأنهم ليختاروا من يشاؤون لهذا المركز المرموق.

فأعجب لهذا الرسول الغريب، يرسله علي للدفاع عن حقوقه، والمحافظة على خلافته، فينزعه عنها، ويعزله منها، ويترك المسلمين وشأنهم يولون من يشاؤون ..

وليس من شك عندنا ان ابا موسى قد ألحق بسياسة علي ضرراً بليغاً، وكان من اثر هذا الضرر البليغ اختلاف اصحاب علي فيما بينهم وظهور الخوارج ..

الاختلاف حول الخلافة

لقد كانت مسألة الخلافة اول ما اختلف فيه المسلمون، وتكون

حولها أهم الفرق الاسلامية في العصر الاسلامي الأول كالشيعة والخوارج ، وكان سبب هذا الاختلاف ان رسول الله صلى الله عليه وسلم توفي قبل ان يعين خلفه من بعده ، وكان من اثر هذا ان فكر الانصار في انتخاب رجل منهم واجتمعوا في السقيفة لبحث هذا الامر واقراره فأسرع اليهم نفر من المهاجرين منهم ابو بكر وعمر بن الخطاب ، فما زالوا بهم حتى صرفوهم عن رأيهم وحملوهم على مبايعة ابي بكر ..

ولم يكن علي ولا احد من بني هاشم في اجتماع السقيفة هذا ، ولا اشترك احدهم في النقاش الذي دار بين المهاجرين والانصار ، والذي انتهى ببيعة ابي بكر كما قدمنا ، فلما بلغهم خبر البيعة انكروها ، وقالوا « ان اقرب الناس الى النبي أولى ان يخلفوه .. وان بيت بني هاشم خير من بيت ابي بكر .. » وعندئذ ظهر رأي جديد هو لسان حال القائلين ان علياً أحق بالخلافة من ابي بكر ، وأيد هذا الرأي بعض بني هاشم ، ولكنه لم يجد تأييداً في الأوساط الاسلامية الاخرى ، ولم يظفر بمن يؤيده ويذيعه وينادي به علانية في ايام ابي بكر وعمر وهما من يعلم الناس اخلاصاً وتضحية وعدلاً وانصافاً ..

فلما ولي عثمان واخذ يستمين بالأمويين يوليهم المناصب ، ويغدق عليهم العطايا والهبات ، ظهر تبرم الناس منه ومن سياسته ، وكانوا يريدون سياسة كسياسة عمر بن الخطاب ، وتحركت بوادر العصبية بين الهاشميين والأمويين ، وكانت ثائرة في الجاهلية ، فأخمدها الاسلام ، وانتشر الدعاة يدعون لعلي ، وينادون بحقه ، وكان بعد هذا ما يعرفه القارىء من ثورة الأمصار على عثمان وقتله ، ومبايعة علي ابن ابي طالب بالخلافة ، فاستغل معاوية بن ابي سفيان هذه الفرصة ،

وكان عاملًا لعثمان على الشام ، وكان يعلم ان علياً غير موليه عملًا له، فقام ينادي بالمطالبة بدم عثمان ، متهماً عليا بأن قعوده عن نصرة الخليفة المقتول قد شجع الثوار على قتله ، وبأن هناك عدداً من القتلة في جنده ، وفعل مثله طلحة والزبير بعد ان بايعا علياً ، وأيدتهما عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم لخلاف شخصي كان بينها وبين علي ، ووقف بعض الصحابة من هذا الاختلاف موقف المتفرج ومن أشهرهم عبدالله بن عمر بن الخطاب وسعد بن ابي وقاس بطل القادسية، واسامة بن زيد ، وحسان بن ثابت وغيرهم ..

فلما رأى علي الموقف الجاهم الذي هو فيه ، رأى ان صلاح الامر لا يكون إلا بالسيف ، كما فعل ابو بكر في حروب الردة ، فحارب طلحة والزبير وعائشة في موقعة الجمل ، وانتصر عليهم ، وقُتل في هذه المعركة طلحة والزبير ، ثم ارتدّ على معاوية في معركة صفين ، فلما أحسّ معاوية بان الدائرة تدور عليه ، أوعز الى جنوده برفع المصاحف على رؤوس الرماح وطلب التحكيم الى كتاب الله، على نحو ما فصلنا قبلًا ..

الخوارج

والخوارج قوم من العرب كانوا في جند علي ، واكثرهم من بني تميم ، انكروا ان يحكم أحد في كتاب الله، وكان انكارهم هذا بعد التحكيم وقالوا: ان التحكيم خطأ،لأن حكم الله في الامر واضح جلي، والتحكيم يتضمن شك كل فريق من المتحاربين في أيها المحق ، وليس يصح هذا الشك ، لانهم وقتلاهم انما حاربوا وهم مؤمنون ان الحق

في جانبهم ... وطلبوا من علي ان يقرّ على نفسه بالخطأ بل بالكفر لقبوله التحكيم ، ويرجع عما ابرم مع معاوية من شروط ، فان فعل عادوا اليه وقاتلوا معه ، فأبى علي ، لان هناك عهداً بينه وبين معاوية ما كان لمثله ان ينقضه ، ثم كيف يقر على نفسه بالكفر ، ولم يكفر بالله مذ آمن به ...

وحاول علي بمختلف الاسباب والوسائل الاتفاق مع الخوارج واقناعهم بخطأهم فلم يوفق ، ولما مشى من صفين الى الكوفة ، خذلوه وتركوه بعد ان اجتمعوا في دار احدهم وخطب خطيبهم فقال:

« أما بعد فوالله ما ينبغي لقوم يؤمنون بالرحمن ، وينيبون الى حكم القرآن ، ان تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والقول بالحق ، فاخرجوا بنا اخواننا من هـذه القرية الظالم اهلها ، الى بعض كور الجبال او الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة».

ونزل الخوارج في قرية قريبة من الكوفة تسمى (حَرُوراء) وأمروا عليهم رجلاً اسمه عبدالله بن وهب الراسبي ، ولمـا لم يوفق عـلي الى اقناعهم بالعودة الى جنده تركهم وشأنهم ، وأخذ يستعد لقتال معاوية ، ثم بلغه ان الخوارج قتلوا واحداً من اصحاب رسول الله اسمه عبدالله بن خباب وزوجته دون ما سبب إلا انهما يختلفان معهم رأياً ... فبعث اليهم رسولاً يعرف له اخبارهم فقتلوه ، فسار اليهم سنة ٣٧ للهجرة ودعاهم الى راية الامان فقبل بعضهم ، ورفض الباقون ، فحاربهم ومزقهم ...

ولم تكن معركة النهروان هذه قبراً للخوارج ، ولا قضت على

فكرتهم ، فما عتم ان ظهر منهم جماعـــات مختلفة في نواح شتى ، نشبت بينهم وبين قوات (علي) بعض المعارك ، وكان من أخطر هذه الثورات قيام زعيم منهم يدعى (ابو مريم) حاول اكتساح الكوفة فحاربه علي وقضى على جماعته ... وكذلك كان مصير الخريت بن راشد وغيره من الخوارج ، وأخيراً دبر جماعة منهم قتله وقتل معاوية وعمرو بن العاص ، فتمكنوا من أمير المؤمنين ،وسلم معاويةوعمرو، واستتب الامر بعده لمعاوية ...

أصل الخوارج

وقد اختلف المؤرخون والمستشرقون في أصل الخوارج ،فذهب (برونو) (Brunnaw) الى أنهم من البدو ، او العرب البدوالذين سكنوا الكوفة والبصرة بعد الفتوح الاولى .

وقال (ولهوزون) : « انهم اهل الردة ، وهم العرب والبدو الذين ثاروا بعد رسول الله عـــلى الحكومة الاسلامية الاولى ..» وليس هناك من اختلاف بين ما ذهب اليه (برونو)و(ولهوزون) لان الواقع ان سكان البصرة والكوفة كانوا بأكثريتهم من العرب البدو الذين اشتركوا في الحروب الفارسية ،ونقلوا معهم الى المدينتين العربيتين الجديدتين جميع الفضائل والمساوىء التي ينعم بها البدو ، خصوصاً ما يتعلق منها بالتعصب للقبيلة ، والحياة الاجتماعية الخاصة ، والنظر الى النظم الحكومية الجديدة نظرة فيها كثير من الجفـــاء وعدم التأييدواللامبالاة، مفضلين عليها انظمتهم العربية المحافظة ، من زعامة شيوخهم ، والاخذ بما وصفهم به معاوية :« من أنهم لايطيقون

الحياة الموحدة ، وانما يفضلون عليها الحياة البدوية الفردية التي تجعل كل شخص منهم يعتبر نفسه شيعة واحدة[1] »

التأثير الخارجي

ومما يبعث على التفكير العظيم ان المذاهب الدينية والشيع المختلفة في الاسلام لم تظهر إلا في العراق وشرقي العراق ، وأما في الشام وسورية فان شيئا من هذا لم يظهر ، ولا نرى له أثراً بين السكان ، وليس ذلك فقط ، بل نرى ان العراق وما جاوره[2] كانا مواطن الفتن والثورات التي كانت تعج في العالم الاسلامي طيلة الخلافة الاموية ، فهل يدل هذا على ان الأرض العراقية ، والارض القائمة حولها والتي تعم بلاد خراسان وفارس ، كانت تنعم باسباب تدعو الى هذه الثورات والفتن ، بينما لم يكن في سورية وفلسطين شيء من هذا ؟

والذي يبدو لنا لاول وهلة من درس الحالة الاجتماعية والسياسية والدينية في العراق والبلاد الشرقية الاخرى ، ان وجود جماعات مختلفة من المسيحيين والآراميين والفرس والمجوس من اتباع زروسترا وغيره ، واتصال هذه الجماعات بالعرب المسلمين على نطاق واسع ، كان من جملة العوامل التي دعت الى ظهور هذه المذاهب الدينية المختلفة في العراق اكثر من غيره ...

ومع تأثر الخلفاء الاول من بني امية بالموظفين المسيحيين وغير المسيحيين الكثيرين في مناصب الدولة ، فان الشعب السوري المسلم

---

(١) العقد الفريد .

(٢) جنوبي الجزيرة العربية وشرقيها بصورة مصغرة .

ظل بعيداً - كما يظهر - عن أي تأثير اجنبي ، وظل بصورة عامة لا يتأثر بالمنازعات المختلفة التي ظهرت في العراق ...

كما ان وجود اكثرية غير مسلمة في العراق - بعد الفتوح الاولى - يفسر لنا خطر هذا التأثير الاجنبي الذي أشرنا اليه على الاقلية العربية المسلمة في العراق ، كما ان بُعد العراق عن مركز الخلافة يفسر الى حد ما ... توتر الحالة الداخلية فيه ، بينما نجد السلام يخيم على دمشق وامصار دمشق حيث كان سلطان الدولة اقوى واظهر وامضى سلاحاً ، وأما في العراق فقد كان هذا السلطان اضعف شأناً ، وأقل تأثيراً ...

ومن المؤكد لنا اليوم ان الفتوحات الاسلامية في العراق وفارس لم تؤثر على الجماعات المسيحية والمجوسية والزروسترية فيهما في حال من الأحوال ، وكانت رحابة صدر الخلفاء الاول تساعد هذه الجماعات على متابعة طقوسها الدينية كما لو كانت تحت الحكم السابق بيزنطياً كان أو فارسياً .

وهناك ظاهرة اخرى ، وهو أن بعض المدن المسيحية ، مثل « الرها » و « نصيبين » قد نزلتا تحت الحكم العربي على شروط حسنة اقلها ان لا تمس كنائسها ، ومثل ذلك كان حال بلدة « الري » في فارس وبلدة « كوماس » Qumas ، فانهما فتحتا ابوابهما للعرب تحت شروط منها ان لا يؤخذ سكانهما اسرى ولا عبداناً ، وان لا تهدم معابدهما المجوسية ، وكذلك كان الحال في اذربيجان[١] .

كما نرى البطريرك النسطوري (يسوياب Yesuyabh) الثالث

---

(١) البلاذري .

٦٤٧ ـ ٦٥٨ الذي كان على رأس طائفتـــه في ايام عثمان وعلي يكتب قائلًا :

« ان العرب الذين اعطاهم الله حكم العـــالم ليسوا اعداء النصرانية ، فهم يحترمون ديننا ، ويكرمون القديسين والكهنة ، ويساعدون الاديرة والكنائس » .

ويقول في مكان آخر كلاماً يدل على ان امر اختيار الاساقفة في ذلك العهد وقيامهم باعمالهم الدينية كان يسير سبيله دون ما تضييق ولا اعتراض من السلطات العربية الحاكمة .

وهذا يدل طبعاً على ان المسيحية في العراق وفارس كانت قوية نشيطة ، وان المسلمين كانوا ابدأ على اتصال مع هذه المسيحية القوية ، التي كانت لغتها السريانية ، والتي كانت تقوم بدعاية نشيطة لنفسها ، في شمالي بـــلاد العرب خصوصاً في البحرين حيث كان للمسيحيه اساقفة وأديرة منذ القرن الخامس بعد الميلاد[١] .

وهذا الاتصال الاسلامي مع المسيحية كان كذلك امراً واقعاً مع المجوسية (الزروسترية) ، وهذه العلاقات كانت اقوى في العراق منها في اي بلد آخر خصوصاً اذا ذكرنا ان الفرس والاراميين اخذوا باستعمال الاسماء العربية بعد الفتح ، مما جعلهم اكثر اتصالاً بالعرب ، كما ان منازلهم ايضاً كانت أقرب الى العراق منها الى غيره من امصار الامبراطورية .

وليس لدينا من المصادر ... ما يمكننا من تحديد التأثير المسيحي

---

(1) Letters of the patriach Isho'-yabh 111 edited by R. Duval - Paris 1804 - 05

في الاسلام اول الفتوح وبعدها بقليل ، ولكن المؤكد ان كثيراً من المسيحيات دخلن البيوت الاسلامية ، بواسطة الزواج أو الخدمة ، وكذلك كان حال الكثيرات من نساء الفرس ...

و«البلاذري» نفسه يقص علينا كيف ان أربعة آلاف فارسي من جند (شاهن شاه) ، طلبوا الامـان بعد معركة من المعارك التي ظفر فيها العرب بالفرس ، فقد صار نقلهم الى البصرة حيث اتصلوا بالاساورة الذين كانوا فيها ، والاساورة كما يظهر كانوا من الفرسان الفرس الذين اسلموا ، وكانوا من موالي بني تميم العرب في البصرة ، ويذكر (البلاذري) ايضاً جماعة من (اصبهان) نزلوا البصرة ، مما يدل على ان كثيراً من الفرس الذين اعتنقوا الاسلام قـد انضموا الى بني تميم القبيلة العربية القوية التي ظهر منها كثير من زعماء الخوارج ..

ولما قام الخوارج بثوراتهم نجد كثيراً ممن اسلموا من الفرس والمسيحيين بينهم ، فأنصار ابي مريم سنة (٦٥٩) وهو الذي ظهر قرب الكوفة كانوا من الموالي ولم يكونوا من العرب ، أي من الذين تقبلوا الاسلام من الفرس وغيرهم ..

وأنصار أبي عبد الله الماحوز كانوا أجناساً مختلفة ، حتى سماهم المهلب (العبيد) ولم يكونوا من العرب ..

وكان جميع هؤلاء يريدون نزع العبودية عنهم ، ثم أصبحوا مع الايام من أشد الخوارج عصبية وتعصباً ...

ولما هرب (المستورد) الخارجي من الكوفة أوى الى الحيرة البلدة المسيحية ، ولما ثار (ابن الاشعث) على الحجاج انضم اليه عدا بعض

العرب من سكان العراق، جماعات من الشيعة والخوارج والفرس والمسيحيين ايضاً ، وقـــد اعتبر الحجاج نصارى نجران الذين نزلوا الكوفة في عهد عمر بن الخطاب مسئولين عن هذه الثورة[١] .

ونظرة الى البلاد والمدن التي كان يكثر فيها امر الخوارج يدلنا على ان اكثر الخوارج كانوا من غير العرب ، ما عدا الازارقـــة والنجدات، لان الفرقة الخارجية التي ظهرت في شمالي الجزيرةالعربية وهي المسماة بالنجدات والتي كان مركزها اليامة ، قد مُزقت في عهد عبد الملك بن مروان ولم تقم لها قائمة بعد ذلك ، وان كان اقلها قد ذهب الى سجستان وفشا امره فيها[٢] .

وكذلك قُضي على الازارقة الذين فشا امرهم في البصرة وحولها في عهد الحجاج ، والبلاد التي ظهر فيها الخوارج ــ ما عدا جنوبي جزيرة العرب ، وشمالي وشرقي إفريقيا ــ كانت كيرمـــان ، وسجستان وخراسان ، والعراق ، وما بين النهرين ، وبصورة اصغر في فارس وسواد العراق..

وفي كيرمان وما بين النهرين عاش الخوارج حتى عهد العباسيين.

ويحدثنا (اليعقوبي) عن يعقوب الذى كان خارجياً ، والذي حارب الخوارج في ارض فارس ، انه كان يستعمل بلدة (بام) في كيرمان كسجن له ، مما يدل على وثوقه باهلها المسيحيين[٣] والظاهر

---

(١) البلاذري .

(٢) الاباضية كانوا عرباً ولكنهم كانوا اكثر الخوارج اعتدالا ، وظهروا بزعامة ابي حمزة واستولوا على مكة والمدينة سنة ٧٤٧ م .

(٣) ابن خلكان والاصطخري .

ان (كيرمان) كانت حتى القرن العاشر مليئة بالخوارج ..

ومن هذا يظهر لنا ان الخوارج الاولين كانوا عرباً انضم اليهم بعض مواليهم من غير العرب ، كما انــه كان لهؤلاء الموالي من المسيحيين والمجوس الذين اسلموا بعض التأثير على العقيدة الخارجية ، ومن المفروض ايضاً ان يكون للمسيحيين والمجوس الذين ظــلوا على دينهم مثل هذا التأثير على المسلمين العرب الذين كانوا يعيشون بينهم او بجوارهم ، وأما مدى هذا التأثير فليس من الممكن تحقيـقه على الوجـه الاكمل والاحسن ، ولكنه تأثير واقــع لا شك فيه ...

ظهور الخوارج

ولما انتهت حروب الفرس نزل اكثر العرب الذين اشتركوا في هذه الحروب...هم ومواليهم وعبيدهم من الفرس والمسيحيين الذين اسلموا ، مدينتي البصرة والكوفة ، وهما بلدتان صار تأسيسهما في عهد عمر بن الخطاب لتكونا معسكرين للقوات العربية على حدود فارس ومابعد فارس من امصار ومواطن ...

ونزل العرب ومواليهم هذين البلدين ، وهم ينعمون بالغنائم الوفيرة ، والاسلاب الكثيرة ، فراحوا وقد اطمأنوا الى حاجاتهم المادية ، يفكرون في الامور الدينية والقرآن واصول الحكم وما يتصل بهذا ويتعلق به من الحياة الروحية والدنيوية ...

ومن المؤكد لدينا اليوم ان العقيدة الخارجية انما ظهرت اول ما ظهرت بين هؤلاء البدو من ابطال الحروب الفارسية ، واكثر

الشخصيات البارزة من الخوارج كانوا من ابناء القبائل الصحراوية الذين نزلوا البصرة والكوفة .

ولقد فتحت الفتنة التي انتهت بمقتل عثمان بن عفــان واختلاف الصحابة بعدها حول مسألة الحكم ، أمام أبناء هذه القبائل مسألة جديدة لم تكن تخطر لهم على بال قبلًا ، وهو انــه يستطاع عزل الخليفة أو قتله إذا خالف رأي الجماعة ، واما مسألة قريش وكون الخلافة فيهم او في غيرهم ، فلم يفطن لها الخوارج اول امرهم ،وهذا يدل على ان ما يقال من وجود حديث بهذا المعنى لا أساس له من الصحة كما يظهر ، لان هؤلاء القوم كانوا في عقائدهم اقرب إلى مسايرة الدين والسنة منهم إلى مخالفتها ، فلو كان هناك نص صريح بهــذا المعنى لما انكروه ولا خالفوه ، ولا عادوا فبحثوه بعد ذلك .

وفتق مقتل عثمان لهذه الجماعة مذهباً جديداً في السياسة الحكومية ايضاً ، وهو انه يُستطاع قتل الخليفة ، إذا خرج عن رأي الجماعة ورفض الاعتزال ، وأصرّ على البقاء في مركزه ،رغم رفض المسلمين لسياسته ، وانكارهم لبقائه وحكمه .

وكذلك نرى أن هذه القبائل العربية التي لم تتعود ان يسودها أحد أو يحكمها أحد إلا على قدر ، والتي كانت تكره ان يحكمها شخص لا يمت لها بصلة من القرابة والنسب ، أو لا يكون من رجال القبيلة نفسها ، على ما كانت عليه عادة العرب قبل الجاهلية ، قد عبّد لها مقتل عثمان ، فاختلاف معاوية وعلي حول الخلافة بعد ذلك ، طريقاً جديداً تسلكه وتدعو فيه الى نوع من الرأي السياسي، هو أقرب ما يكون الى الحكم العربي الجاهلي الذي كان قبل الاسلام ،

والذي أصبح مع التعديل الذي لحقه بسبب اتصال العرب المسلمين بالمسيحيين والمجوس وغيرهم ، نظاماً سياسياً جديداً قريباً من النظام البدوي السابق كما قدمنا ، وقريباً أيضاً من نفسية الجماعات الجديدة التي دخلت الاسلام ، والتي رأت في النظام الجمهوري نظاماً يحفظ لها بعض حقوقها ، ولا يمنع أبناءها مع الأيام من الوصول الى الخلافة، وكان هذا النظام الجديد يتلخص في انه ليس هناك ما يمنع أي عربي مسلم من ترشيح نفسه للخلافة ؛ كما يجوز خلع الخليفة اذا خـالف الاحكام .. ولم يحسن الادارة والعدل والانصاف .

الحكم في الاسلام

والواقع ان معظم الحركات الثورية السياسية في العهد الاسلامي الاول تكاد ترجع في أسبابها وغاياتها الى مسألة الحكم ،وكيف يجب أن يكون الحاكم ، خليفة كان أم إماماً ، فالشيعة تقول : انه يجب ان يكون من آل رسول الله ، وعلي أقرب الناس اليه ، وأولاد علي من فاطمة ، هم حفدة رسول الله ، وهم على ذلك أولى بالحكم من سواهم من المسلمين .

والخوارج لا يرون هذا الرأي ويذهبون الى نقيضه ، فهم لا يعترفون بالخلافة كأرث ينتقل من الأب الى ولده ، ولا يقبلون ما يقوله الشيعة من ان علياً وأولاده أولى بالحكم من غيرهم من المسلمين، بل يدعون الى الخلافة الحرة بحيث يصار الى اختيار صاحبها مـن المسلمين ، لا يفرضون لنسبه مقاماً ولا وزناً ،ولا ينظرون الى اتصاله برسول الله في كثير ولا قليل .

الخليفة عندهم احد صلحاء المسلمين وخيارهم ، فهم والحالة هذه أصحاب مبدأ جمهوري في الخلافة يخالف مبدأ الشيعة الملكي الوراثي، ويخالف مبدأ الامويين في النظام الملكي الوراثي الذي خلقوه بعد ذلك ، والذي كان يختلف عن النظام الشيعي في انعدام الصفة الدينية ـ المستمدة من الانتساب الى رسول الله ـ في الخليفة .

وليس من شك اليوم في ان سياسة عثمان بن عفان الرقيقة المعتدلة اللينة ، وما أظهره في عهد خلافته من تقريب اهله اليه ، وتوزيع السيادة بين عصبته وانصاره واهله ، كان من الاسباب الاولى في نشوء الثورات الخارجية فيما بعد،لان هذه السياسة التي كانت تناقض سياسة عمر بن الخطاب مناقضة صريحة ، هي التي لفتت الانظار ، واثارت الاختلافات ، وكانت سياسة عمر وابي بكر قبله قد اصبحت دستوراً سياسيا ، من المفروض على كل من أتى بعدهما ان يسير عليه ويعمل به ، يؤيد ذلك انه لما صار اختيار الشورى لعثمان بن عفان ، كان مما طلبه عبد الرحمن بن عوف من الخليفة الجديد لما بايعه بالخلافة ان يعمل بسنة رسول الله والخليفتين من قبله ، وقد عاهد عثمان بن عفان رجال الشورى والمسلمين على العمل بذلك ، واما علي فرفض الاخذ بهذا ، وقال انه يعمل بما يراه موافقا للمصلحة العامة ، وللموافق عثمان على ما رفضه علي وانكره صار اختياره ، ولو قبل علي بان يعمل بدستور الخليفتين قبله لصار اختياره على الارجح .

واذاً فنحن امام دستور جديد للحكم وافقت عليه الامة الاسلامية وارتضته ، واشترطت على الخليفة ان يسير عليه ، فلما حاول عثمان الخروج على هذا الدستور الذي عاهد الناس عليه ،ثاروا عليه وقتلوه،

بحجة انه خرج على هذا الدستور المقرر.. هذا الى ان عثمان كان لينا حليما ، حتى مع اهل الخلاف والبغي ، بخلاف عمر بن الخطاب الذي كان شديداً قاسيا ، لا يجرأ احد من العرب في عهده ان يرفع صوته فوق صوته ، او يرد له كلمة من كلامه .

اما سبب هذا فلأن عمراً كان من ابعد الناس عن محاباة الناس ، سوّى بين المسلمين فلم يقدّم احداً على آخر ، ولم يفضّل شخصا على شخص ، إلا بما له من عمل صالح وصلاح ظاهر ، فلم يكن في سياسته العامة والحالة هذه ما يوجب الانتقاض عليه ، ولم يكن في ادارته واحكامه ما يدعو الى الشك والمحاباة ، ولذلك كان قويا شديداً اذا دعا الناس الى امر اجابوه ، واذا طلبهم الى تضحية اسرعوا اليها ، لانه كما قدمنا كان يجري على نفسه ما أجراه عليهم ، لا يفضل نفسه على احد من المسلمين ، ولا يسمح لاهل بيته ان ينعموا بما لا ينعم به أقل المسلمين ، فهذه السياسة العادلة الرائعة كانت شيئا لا يستطيع غير عمر ان يحمل نفسه ويحمل الناس عليها ، فلما كان عهد عثمان اخذ الناس ينعمون بامور كثيرة لم يكن واحدهم يجرأ على مثلها أيام عمر ، وأخذ عثمان في الوقت نفسه يتلطف مع أهل بيته وأهله باموال وأراض ، لم يتكلف عمر مثلها مع أهله ، فنقم عليه الناس خروجه عن سنة سلفه ، وأطمعهم فيه حلمه ولينه ، فكانت الفتنة وما تبع الفتنة من ثورة واضطراب ...

والمصادر التاريخية التي بين أيدينا تؤكد ما قدمناه وتؤيده ، فقد زاد عثمان في البيت الحرام ، ووسعه فابتاع من قوم دورهم ، وأبى آخرون فثار ثائره ، وهدم عليهم دورهم ووضع الثمن في

بيت المال ، فصاحوا به وأنكروا عمله فحبسهم وقال جملته المشهورة: « ما جرأكم عليّ إلا حلمي ، فقد فعل هذا بكم عمر ، فلم تصيحوا به » ثم لما كلمه بعض الناس بأمرهم ، أخرجهم من السجن ، فكانوا من أشد الناقمين عليه ، وأكثرهم قولا فيه ، ولو كان عمر مكانه لما كان ما كان ، ولا كان هناك بين الناس من يستمع لهم لو أنكروا من أمر عمر ما أنكروه من أمر عثمان !!

أما أن للخوارج يداً في قتل عثمان ، فهذا شيء يحتاج إلى شيء من النظر ، لاننا نعتقد أن سيرة عمر بن الخطاب هي التي قتلت عثمان ، فهذه السيرة الرائعة والعدل الشامل ، والانصاف الكامل ، والشدة في مكانها ، واللين في مقامه ، الذي أصبح دستور الدولة الاسلامية في عهد عمر بن الخطاب ، كان شيئاً لا قبل لعثمان باقراره على الوجه الأكمل والأحسن ، لان عثمان بن عفان كان صحابيا جليلاً ، ضعيفا مع أهله ، عاجزاً عن الشدة ، بعيداً عن الجرأة ، وهذه السياسة كما قدمنا تناقض سياسة الخليفة السابق مناقضة ظاهرة ، والخوارج لم يكونوا في عهد عثمان لنقول أنهم انكروا سياسته ، ودعوا الناس الى مخالفته ، ولكننا لا نستبعد ان يكون بين اهل المدينة والامصار الذين نقموا على عثمان وحاربوه وقتلوه ، من انضم الى الخوارج بعد ذلك ، وهو ما وقع فعلاً ، فالذين حرضوا المسلمين على الثورة وارتكاب الجريمة في عهد عثمان ، ثم انضموا إلى علي بعد ذلك ، كانوا أول من انشق على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعد معركة صفين ومسألة التحكيم ، بحيث يصح أن يقال أن من اصبحوا خوارج في عهد علي ، كانوا من الثائرين على عثمان قبله ...

— ٢ —

الثورات الاولى

الخوارج وعلي

لما عاد (علي) من صفين الى الكوفة بعد التحكيم .. ابى الخوارج من جنده — وهم الذين انكروا عليه قبول التحكيم بعد فشل الحكمين — دخولها معه ، وكان عددهم اثني عشر الفاً ، ونزلوا في (حروراء) وهو مكان قريب منها ..

وكان الخوارج جماعات ، منهم من غضب لموقف علي وتركه النصر يفلت من يده في معركة صفين ، ومنهم من انكر هذا الخذلان الذي اصابه ، وخسرانه الغنائم التي كان ينتظرها ، ومنهم جماعة من القراء كانوا من الذين أكرهوا علياً على قبول التحكيم ، فلما عرفوا نتيجة التحكيم غضبوا عليه وقاطعوه ، وكان نصف الخوارج من الذين اشتركوا في الحروب الفارسية والنصف الآخر موزعاً بين القبائل والجماعات الاخرى ..

ومن المؤكد ان تردد (علي) في سياسته ووقفه القتال في صفين ثم

قبوله بالتحكيم ، وتفويضه الأمر لأبي موسى الاشعري قد جرّ عليه هذا الخلاف الذي اخذ يمزق جنده ، ويصرفه عن محاربة عدوه ، ومن المفروض ان علياً قد ادرك خطورة الموقف ، فحاول اصلاح الأمر بالتي هي أحسن ، فبعث الى الخوارج عبدالله بن عباس يناظرهم ويناقشهم لعلهم يرجعون اليه ، فقال ابن عباس يخاطب جماعة الخوارج :

ــ ما الذي نقمتم على امير المؤمنين ؟

قالوا : قد كان للمؤمنين اميراً ... فلما حكم في دين الله خرج من الايمان ، فليتب بعد اقراره بالكفر نعد له .

فقال : لا ينبغي لمؤمن لم يشب ايمانه شك ان يقرّ على نفسه بالكفر .

قالوا : انه قد حكم ..

قال : أن الله امرنا بالتحكيم في قتل صيد الحرم ، فكيف في امامة أشكلت على المسلمين ؟.

فقالوا : انه قد حُكِمَ عليه فلم يرض .

فقال : ان الحكومة كالامامة ، ومتى فسق الامام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نُبذت اقاويلهما .

فلم يزدهم كل هذا إلا عناداً ، وسلك علي معهم كل وسائل الاقناع والمسالمة ، وذهب يناظرهم بنفسه وقال لهم في جملة ما قاله :

ــ ألا تعلمون ان هؤلاء القوم لما رفعوا المصاحف قلت لكم : «ان هذه مكيدة ووهن» وانهم لو قصدوا الى حكم المصاحف لم يأتوني بل سألوني التحكيم ، أفعلمتم انه كان منكم احد أكره لذلك مني ؟

قالوا : اللهم نعم .

فقال علي : فهل علمتم انكم استكرهتموني على ذلك حتى اجبتكم اليه، فاشترطت ان حكمهما نافذ ما حكما بحكم الله عز وجل ، فان خالفاه فانا وانتم من ذلك براء .

فقالوا : نعم ، ونحن مقرون بانا قد كفرنا ونحن تائبون فاقرر بمثل ما اقررنا وتب ... ننهض معك الى الشام ...

فرفض علي ان يقر على نفسه بالكفر ثم يتوب ، وكان من نتيجة هذه المناظرة ان عاد اليه بعضهم وظل البعض الاخر على عنـاده ، واختاروا عبدالله بن وهب الراسي خليفة لهم في ٢٢ مارس سنة٦٥٨ وكان اول رؤسائهم ، واستقر امرهم على مغادرة الكوفة ، وكتبوا الى انصارهم في البصرة يحثونهم على اللحاق بهم ، فتصدهم مسعود بن فدكي مع جماعة ، وساروا الى النهروان وهو مكان بـين بغداد وواسط ، واسم لمدينة صغيرة في الشمال الشرقي من بغداد ، واسم لنهر يسقيها ... ولذلك تسمى موقعة النهروان وموقعة النهر ايضاً .

ولقد اضطر علي الى خوض موقعة النهروان اضطراراً ، وكان بعد هذه المناظرات التي جرت بينه وبين الخوارج قد قرر تركهم وشأنهم والتفرغ لمعاوية واهل الشام، فبينما هو يستعد لمحاربة معاوية في سبعين الف مقاتل ، بلغه ان خوارج البصرة قتلوا واحداً من اصحاب رسول الله هو عبدالله بن خباب وزوجته ، فبعث اليهم رسولاً يعرف له اخبارهم فقتلوه ايضا ، فسار اليهم في سنة ٣٧ للهجرة وقد تهيأ الجيشان للقتال ، فرفع (علي) راية الامان مـع ابي ايوب الانصاري فنادى ابو ايوب :

ـ من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ، ولم يستعرض فهو آمن ،ومن انصرف منكم الى الكوفة او الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن .

فقال فروة بن نوفل وكان من زعماء الخوارج :

ـ والله ما ادري على أي شيء نقاتل علياً ، لا أرى إلا ان انصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله او اتباعه...

وانصرف في خمسمائة فارس وانصرفت فئة اخرى الى الكوفة ، وقاتل علي من بقي من الخوارج ، فما صبروا امامه إلا يوماً واحداً تمزقوا بعده شر ممزق .

وماكاد علي يعود الى الكوفة ويأخذ بالاستعداد لمحاربة معاوية امير الشام حتى وجد من جماعته اعراضاً ونفوراً من الحرب حمله على التربص وارتقاب الفرص ..

وكان من أثر هذا ان ثار الخوارج غير مرة في عهده ، ولكنه تمكن منهم وأمعن فيهم .. حتى قتلوه بعد ذلك اغتيالاً وغدراً ..

معاوية والخوارج

ولما ولي معاوية الخلافة صرف الخوارج كثيراً من جهودهم لمحاربته واقتحام الأمصار الاسلامية في عهده خصوصاً العراق ..

وكان على رأس الخوارج في هذا العهد فروة بن نوفل الأشجعي وكان ممن اعتزل علياً في خمسمائة من اصحابه ،ولم يحاربه في النهروان فلما قتل علي وولي معاوية قال لأصحابه :

ـ جاء والله ما لا شك فيه ، فسيروا الى معاوية فجاهدوه ..

وكان (فروة) هذا مقيما بشهرزور من أعمال فارس ، وفي سنة ٤١ للهجرة، سار مع اصحابه الى الكوفة ، ونزلوا (النخيلة) وهي قريبة منها ، فأرسل اليهم معاوية جماعة من اهل الشام فكسروهم ، ونجا من اهل الشام من نجا وقتل من قتل ، فخرج اهل الكوفــة بدعوة من معاوية لقتالهم فتمكنوا منهم وغلبوهم وقتلوا منهم جماعة عظيمة .

ولو كان الخوارج جماعة واحدة وصفاً واحـــداً ، لأثخنوا في عدوّهم ، وغلبوه على امره ، لما كانوا ينعمون به من جرأة وبسالة وتضحية وصبر على الحرب ، وبراعة في المكيدة ، ولكنهم كانوا جماعات مختلفة لا ينضوون تحت لواء واحد ، ولا يحاربون في جبهة واحدة ، وكان هذا من أوكد الأسباب في انهيارهم ، وتمكن عدوهم من استئصالهم ، ولكن بعد حروب شاقة وأعوام عديدة .

ومما يذكره المؤرخون من حديث معركة النخيلة هذه ان قبيلة أشجع تمكنت من اخذ فروة بن نوفل من بين اصحابه الخوارج ، فولى الخوارج عليهم عبدالله بن ابي الحوساء ، فقُتل في اثناء المعركة، فولى الخوارج عليهم حوثرة بن وداع بن مسعود الأسدي ، فعاد الى النخيلة فأرسل اليه معاوية اباه لعله يرده وقال له :

ـ اخرج الى ابنك فلعله يرق اذ رآك ..

فخرج اليه وكلمه وناشده وقال :

ـ ألا أجيئك بابنك فلعلك اذا رأيته كرهت فراقه ..

فقال حوثرة : انا الى طعنة من يد كافر يرمح القلب فيها ساعة أشوق مني الى ابني ...

فرجع أبوه وأخبر معاوية بقوله ..
فأرسل معاوية اليهم جنداً فقتلوهم جميعاً ...

الخوارج في الكوفة

وقام الخوارج بعد هذا بعدة معارك صغيرة وثورات ضعيفة لم يكن لها اثر ولا شأن ... حتى نزل جمع منهم الكوفة ، وكانوا ممن شهدوا موقعة النهروان واقاموا بها ، وكان (المغيرة بن شعبة) عاملها في ذلك الحين ، فلم يعرض لهم بخير ولا شر ، وسبب ذلك ان المغيرة كان من دهاة العرب ، واصحاب المطامع الشخصية ، ومن المحبين للسلامة والعافية ، فلم يكن من رأيه مثـلاً ان يستقر حكم معاوية ، ويخسر المغيرة راحته وطمأنينته وهدوءه ، وكان من هؤلاء الامراء والحكام الذين يفضلون الوصول إلى اغراضهم بالسلم والمخاتلة والحيلة ،ويكرهون إراقة الدماء ، فترك الخوارج وشأنهم يجتمعون في دار (حيان بن ظبيان) حيث ولوا أمرهم المستورد بن علفة ، وتواعدوا على الخروج في غرة شعبان من سنة ٤٣ للهجرة ..

وكان حيان هذا ممن قاتلوا علياً يوم النهروان وقد عفا عنه (علي) بعد ان جرح في هذه الموقعة ، فلما بريء خرج هو وجماعتـه الى الري واقاموا بها ، حتى بلغهم مقتل علي ، فقرر حيان وانصاره المسير الى الكوفة ومناجزة اعدائهم ، وسار الخوارج الى الكوفة ودخلوها ، واخذوا يجتمعون في دار حيان كما ذكرنا ، فلما علم المغيرة من كبير شرطته بما اتفق الخوارج عليه ، خشي ان هو سكت عنهم ان يعرف معاوية بسكوته فيتهمه ، ويبعث بغيره مكانه ، فبعث كبير شرطته

الى منزل حيان فأتاه بمن وجد منهم وكانوا نحواً من عشرين شخصاً ، فسجنهم ، وسمع اخوانهم بالخبر فحذروا ، وخرج (المستورد) فنزل داراً بالحيرة ، وبعث الى اخوانه فاجتمعوا اليه ...

فلما علم المغيره بما يعدونه ، ويعملون له ، جمع رؤساء القبائل وقام في الناس خطيباً فحمد الله وأثنى على رسوله ثم قال :

« لقد علمتم اني لم أزل احب لجماعتكم العاقبـــة ، وأكف عنكم الاذى ، وخشيت ان يكون ذلك ادب سوء لسفهائكم ، وقـــد خشيت من ان لا نجد بداً من ان يؤخذ الحليم التقي بذنب الجاهل السفيه ، فكفوا عنا سفهاءكم قبل ان يشمل البلاء عوامكم ، وقد بلغنا ان رجالاً يريدون ان يظهروا في المصر بالشقاق والنفاق والخلاف ، وايم الله لا يخرجون في حي من احيـــاء العرب ، إلا اهلكتهم وجعلتهم نـكالاً لمن بعدهم .. »

فقام اليه بن قيس الرياحي فقال : « ايها الامير اعلمنا بهؤلاء القوم فان كانوا منا كفيناك امرهم ، وان كانوا من غيرنا ، امرت اهـــل الطاعة فأتاك كل قبيلة بسفهائهم .. »

فاحضر المغيرة الرؤساء وقال لهم : « ليكفني كل رجل منكم قومه، او فوالله لأتحولن عما تعرفون الى ما تنكرون .. وعمـــا تحبون الى ما تكرهون . »

فرجع الرؤساء كل الى قومه ، يناشدونهم الله والاسلام ، ألا دلوهم على من يريدون اثارة الفتنة .. فتثاقل الناس على الأثر عن الخروج مع الخوارج ، ولم يخرج مع (المستورد) سوى ثلاثمائة نفر ، ساروا الى (الصراة) قرب بغداد ومنها الى (بهر سير) ..

فلما علم المغيرة بمسيرهم جمع لقتالهم جيشاً من الشيعة يربو على الثلاثة آلاف فادركوا الخوارج في (المذار) بين ـ واسط والبصرة ـ ثم في قرية من قرى (بهر سير) فابادوهم ..

وكذلك نرى ان المغيرة حاكم الكوفة ضرب الخوارج بالشيعة وكلٌ عدو للآخر، وكلٌ عدو لمعاوية ودولته ، وبهذا تمكن وهو جالس في قصر الامارة من اضعاف الحزبين دون ان يحرك ساكناً او يجرد سيفاً ...

والواقع ان موقف المغيرة من الحزبين كان أقرب الى الليونة منه الى الضعف ، فما كان يهمه ان يتنكر الخوارج والشيعة لسياسة معاوية ، وليس يضيق صدره ان ينتقد الخوارج والشيعة حكم بني امية ما دام هذا التنكر وذلك النقد يقتصران على الكلام والخطب ، دون العمل والاقدام ، ولولا اجتماع الخوارج في الكوفة واتعادهم يوماً معيناً للخروج والثورة،ولولا خوفه من معاوية وعيونه،واتهامه بمالأة الثوار والسكوت عن اهل الشقاق والخلاف ، لظل ساكناً هادئاً لا يقدم رجلاً ولا يحرك اخرى ، والذي لا شك فيه ان هذه السياسة قد أرضت الكوفيين كل الرضاء ، وقد ذكر (الطبري)في تاريخه ما يؤيد رأينا هذا ، فلم يرَ الكوفيون مثل المغيرة حاكماً ليناً وادعاً ، لا يحاول احراج احد ، كان كل همه إبان حكمه ان يقضي باقيات أيامه في يسر ودعة وهناء ، لا يعكرها عليه خارجي ولا ثائر .

وكان يأتيه بعضهم فيقول له:

ـ ان فلاناً يرى رأي الشيعة وفلاناً يرى رأي الخوارج .

فيقول : قضى الله ان لا يزالوا مختلفين ، وسيحكم الله بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون ..

فأمنه الناس ، وكان الخوارج في عهده يلقى بعضهم بعضاً ، ويتذاكرون مكان اخوانهم بالنهروان وغير النهروان،فــلا يحرك المغيرة ساكناً اول الامر ، فلما اكثروا من الاجتماعات ، وأغرقوا في المؤامرات ، أرسل كبير الشرطة فأوقف بعضهم كما قدمنا ، ثم حاربهم بخصومهم فأفناهم ، فدانت له الكوفة ، واستوثق له الأمر ، وأقام عاملاً لمعاوية سبع سنين وشهراً ، وهو عــلى حاله من حسن السيرة وحب العافية ، والتحايل لغرضه والمكر في ادارته ..

وكان يقول :«لا أحب ان ابتدىء اهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى .. ويعز في الدنيا معــاوية ويذل يوم القيامة المغيرة .. ولكني قابل من محسنهم ، وعاف عن مسيئهم ، وحامد حليمهم وواعظ سفيههم ، حتى يفرق الموت بيني وبينهم .. وسيذكرونني اذا ما جربوا غيري . »

الخوارج وزياد

هذا ما كان من شأن الخوارج في الكوفة ، واما شأنهم في البصرة فان لذلك قصة اخرى ..

كانت البصرة في عهد معاوية بلدة عظيمة تعج بالناس ، وتزدحم بالغادين والقادمين ، عظمت تجارتها ، واتسعت رقعتها حتى حلت محل (الابلة) مرفأ العراق القديم ، وحتى أصبحت طريق التجارة البحرية من البلاد العربية الى الهند والصين ..

وكان معظم سكانها من عرب الشمال (مضر وربيعة) ..كما وفد عليها وأقام فيها كثير من الأغراب ،من الهنود والصينيين والفرس ، حتى اصبح سكانها مع الأيام خليطاً عجيباً ، وكان من أثر ذلك ان تأثرت الحركات العلمية التي قامت فيها بما حمله اليها هؤلاء الأغراب من فلسفاتهم القديمة ..

وكانت البصرة الى ذلك تنعم في ذلك الحين بمركز حربي خطير ، ومن المفروض في مدينة هذا شأنها ، وهذا مركزها ، ان تكون الحالة الداخلية فيها قلقة مضطربة ...

ومن حق بلد ينزله كل يوم مختلف الجماعات ، وتأوي اليه مختلف الاحزاب ان تختل اموره اختلالاً كبيراً ، فيكثر في نواحيه عبث الخوارج والتلصص وقطع الطرق ،وتتفشى في البلد الآفات التي تلحق الجماعة البدوية متى انتقلت طفرة الى الحضارة والترف ، فكثر الفسق وشاع الفجور ، كما نقل الذين نزلوها واكثرهم من الاعراب البدو ، تقاليدهم الجاهلية ، وتعصب القبائل الاعمى بعضها لبعض ،حتى عجز من ولاهم معاوية امر البصرة عن اصلاح الحال ، وحتى اصبحت الحاجة ماسة الى امير حازم بالسياسة والادارة ،يضع الامور في نصابها ، ويرد فساد المصر الى صلاح ، فلم يرَ معاوية اقدر من زياد على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل ،فولاه سنة ٤٥ للهجرة ، البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، والمراد بالهند هنا ثغر الابلة وما اليها .

وكان العراق في هذه الفترة يعج بالخلافات ،ويضطرب بالخصومات ، ويكثر فيه الخوارج وغير الخوارج ، من الذين كانوا يؤلبون على

الامويين وانصارهم سراً وجهراً ، وهذه حالة كانت تشغل معاوية ، وتقض مضجعه ، وكان يعلم انه بحاجة الى ولاة يثق بهم ويطمئن الى اخلاصهم ، وكان من حسن حظه ان نعم بثلاثة لا نبالغ اذا قلنا انهم كانوا احسن الولاة في عهدهم ، ونحن في هذا لا نعرض لاخلاقهم وشدتهم ، ولا لهذا البطش الذي كانوا يتكلفونه في سياستهم وادارتهم ، وانما نريد الاشارة فقط الى هذه الناحية الادارية ، التي كانت ظاهرة البراعة والخطر في اعمالهم ، وما وفقوا اليه من تثبيت الامن والقضاء على كل ثورة وخلاف .

وظهرت خصال (زياد) ناجحة حين تولى العراق ، فاشتد على المعارضة العنيفة حتى اضطرها الى الهدوء والاذعان ، ولم يتردد في اتخاذ شتى الطرق ومختلف السبل التي تساوق اغراضه وتؤيد سياسته ، فبطش بالغواة والمفسدين حتى أقر الأمن في نصابه... واقام في العراق نظاماً ثابتاً موطداً ، كان قد فقده لسنوات خلت ...

ولما وصل زياد الى البصرة ، مشى الى المسجد ساعته ، وكان المسجد في هذا العهد مركز الناس ، ومقر السياسة ، ومعهد العلوم المختلفة ، فيه يجتمع الناس ، وفيه ينتقدون السلطان ، وفيه تذاع قرارات الدولة ، وفيه تعلن الثورة ، وفيه تدرس العلوم المختلفة ، يختار كل عالم من علماء العصر سارية من سواريه يجلس تحتها ، ويجلس طلابه وتلاميذه حوله ..

واذاً فقد كان المجلس شيئاً واسعاً كبيراً يختلف عن حاله اليوم كل الاختلاف ، بل لقد ذهب احد المستشرقين يشبهه بالبرلمان المعاصر ، وكان فيه يجلس الأمير ، واليه يختلف الناس ، ومنه ترسل الخطب

دعوة الى ثورة كما قدمنا ، أو نداء الى وحدة ، وأما دار الامارة فكانت مقر الأمير وعائلته ، يأخذ فيها حظه من الراحة بعد عناء العمل و كد النهار ...

و كذلك كان اول اعمال زياد لما دخل البصرة ، ان يذهب الى المسجد للصلاة بالناس ، ولالقاء خطبته الاولى المنتظرة عليهم ، وكان هذا شأن الامير في هذا العهد الذي نؤرخ له ، كان عليه حين يتولى حكم بلد من البلاد ان يقصد مسجدها ، وان يعلن سياسته الجديدة على الناس من منبرها ، وبعد قيامه بهذا الواجب التقليدي يصبح امير البلد حقاً ، ووكيل الخليفة بصورة رسمية شرعية ..

و كثيراً ما يذكر المؤرخون دعوة الخليفة او الامير الناس لصلاة جامعة ، ولا يكون اليوم يوم جمعة ، ومعنى ذلك ان الخليفة او الامير يريد ان يحضر المسجد للصلاة فيه ، وانه يريد ان يحضره معه اكبر عدد ممكن من الناس ، ليبسط لهم سياسته ويحدثهم عن اغراضه وبرامجه ، وكان بعض الامراء في مثل هذه الحالات يستعملون الشرط او الحرس لجلب الناس الى المسجد ولو بالقوة ، وكانوا طبعاً يحضرون الى المسجد فئة معينة من الناس لها شأنها وأثرها وخطرها في البلد المذكور ، وكان الامير او الخليفة لا يرى كبير امر من وقوف الحرس الى جانبيه وحوله ، في اثناء الخطبة تعظيماً لشأن الامارة ، واقراراً لهيبتها بين الناس ...

خطبة زياد

وكان زياد خطيباً بارعاً مفوهاً امتدح خطبه كثير من العلماء ،

وضرب الشعراء ببلاغته المثل ، فلما وصل الى المسجد ، وصعد المنبر ، قال يخطب الناس الذين كان يعج بهم المسجد :

« اما بعد فان الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، ما يأتي سفهاؤكم ويشتمل عليه حلماؤكم من الامور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأن لم تسمعوا نبي الله ،ولم تقرأوا كتاب الله ، ولم تعلموا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب الاليم لأهل معصيتـــه .. الى ان يقول : كل امرىء منكم يذب عن سفيهه ، صنع من لا يخاف عقاباً ، ولا يرجو معاداً . مـــا انتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، ولم يزل بهم ماترون من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حرم الاسلام .. حرام عليّ الطعام والشراب حتى اسويها بالارض هدماً واحراقاً ، اني رأيت آخر هذا الامر لا يصلح الا بما صلح به اوله ، لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، واني لأقسم بالله لآخذن الولي بالولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر والصحيح منكم بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم اخاه فيقول : « أنج سعد فقد هلك سعيد » او تستقيم لي قناتكم .. ان كذبة المنبر مشهودة، فاذا تعلقتم عليّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، من يبيت منكم فأنا ضامن لما ذهب له، اياي ودلج الليل،فأني لا اوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وقد أجلتكم في ذلك بقدر ما يأتي الخبر الكوفةويرجع اليكم ، واياي ودعوى الجاهلية ، فاني لا اجد احداً دعا بها إلا قطعت لسانه، وقد احدثتم احداثاً لم تكن ، وقد احدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرّق قوماً غرقناه ، ومن حرق على قوم حرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته به حياً ، فكفوا عني ايديكم

وألسنتكم ، اكفف عنكم يدي وأذاي ، لا يظهر من احد منكم خلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه ، وقد كانت بيني وبين اقوام إحن فجعلت ذلك خلف اذني وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد احساناً ، ومن كان مسيئاً فلينزع عن اساءته ، اني لو علمت ان احدكم قد قتله السل من بغضي لم اكشف له قناعاً ، ولم اهتك له ستراً حتى يبدي لي صفحته ، فاذا فعل لم اناظره ، فاستأنفوا اموركم ، واعينوا على انفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس : واعلموا اني مهما قصرت عنه ، فاني لا اقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو اتاني طارقاً بليل ، ولا حابساً رزقاً ولا عطاء ولا مجمراً لكم بعثا ، فادعوا الله بالصلاح لأئمتكم فانهم ساستكم المؤدبون ، وكهفكم الذي اليه تأوون ، ومتى تصلحوا يصلحوا ، ولا تشربوا قلوبكم بغضهم فيشتد لذلك غيظكم ويطول له حزنكم ، ولا تدركوا حاجتكم ، مع انه لو استجيب لكم لكان شراً لكم ، اسأل الله ان يعين كلًا على كل ، واذا رأيتموني انفذ فيكم الامر فانفذوه على اذلاله ، وأيم الله ان لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل امرىء منكم ان يكون من صرعاي.»

الاحكام العرفية

هذه الخطبة من ادهش الخطب التي رواها لنا التاريخ ، فهي قوية عنيفة مخيفة ثائرة ، وهي الى هذا آية من آيات البيان العربي ، وجم لها الناس ، ودهش منها السامعون ...

رأى زياد ان الحالة في البصرة تدعو الى الحزم والعزم والشدة

والصرامة ، فأنذر سامعيه بأنه ماضٍ في سياسته على نحو ما بسطه من الوان الشدة والكيد لأهل الضلال والفسق دون ما هوادة ولا رحمة ، وقد وضع لسياسته الجديدة برنامجا اعلنه في خطبته ،فخرجت تساوق التصريحات الوزارية الحاضرة من حيث ابانتها عن اغراض الحاكم الجديد ومذاهبه في الادارة والحكم ، وقد بدأ زياد خطبته بانكار ما كان عليه اهل البصرة من معصية الله ، وفسوق في الدين، وتخاذل عن امر السلطان ، ثم اعلن ان امور المسلمين لن تصلح الا بما صلحت به في اولها من لين في غير ضعف،وشدةفي غيرعنف على نحو ما كانت عليه سياسة الفاروق قبله ..

ثم اعلن ان اهل العراق قد استحدثوا آثاما لم تكن ، وانه سيضع لهم من العقوبات ما يلائم هذه الآثام ، واعلن هذه العقوبات الجديدة ، فاذا هي تتجاوز ما يعرفه العرب من عقوبات كمثل « من نقب بيتا نقبنا على قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه فيه حيا » ، كما انه جعل القتل عقوبة لمن دلج في الطريق بعد مضي ساعة معينة من الليل، وجعل قطع اللسان عقوبة لمن دعا بدعوى الجاهلية ، ثم بيّن لهم حرصه على مصلحة الامة ، وانه ساهر عليها ، غير محتجب عن صاحب حاجة ، ثم اثبت حق بني امية في السلطان ، وطلب الى الناس ان يذعنوا في غير حسد ولا ضغينة ، فذلك انفع لهم واجدى عليهم من طاعة مدخولة لا تستقيم معها الامور ..

وهذه الخطبة اشبه بالاحكام العرفية ، فقد وجم لها الناس ، وراحوا لا يصدقون انفسهم لما سمعوه يؤكد اعتزامه اخذ الصالح بالطالح ،والمقيم بالثائر ، حتى قام اليه (ابو بلال) وهو من الخوارج

فقال له :

ــ انبأنا الله بغير ما قلت ، قال الله تعالى : وابراهيم الذي وفى، ألا تزر وازرة وزر اخرى وان ليس للانسان الا ما سعى »فاوعدنا الله خيراً مما اوعدتنا يا زياد ..

فقال زياد : انا لا نجد الى ما تريد انت واصحابك سبيلاً حتى نخوض اليه الدماء ..

الشدة

وكان زياد عند قوله فما تعلق عليه احد بكذبة ، ولقد أنفذ وعيده في حالات عديدة رغبة في الارهاب ، لا حباً بسفك الدماء ، فاستقامت امور البصرة ، ولما تمّ له ذلك تكلف ضبط الأمر في نواحيها ، فاستكفى من فيها من الخوارج فكسر هذا من شر تلك الجماعة العاتية ، وعمّ الأمن اطراف البصرة ونواحيها ، حتى انه قال يوماً :

«لو فقد جمل بيني وبين خراسان لعرفت من أخذه.»

واستعمل زياد على شرطته عبدالله بن حصين، وأجل الناس حتى يبلغ الخبر الكوفة ، كأنه اراد ان يعلم اهل الكوفة ايضاً بسياسته الجديدة .. وعقوباته الشديدة ،فلما مضت المدة المقررة بدأ زياد ينفذ انذاره في الذين كانوا يدلجون في الليل ولا يأوون الى بيوتهم في الوقت الذي قرر فيه منع التجول ، وكان زياد يصلي المساء متأخراً قليلاً ، ثم يأمر شخصاً بقراءة سورة البقرة او غيرها، ثم ينتظر بحيث يترك لكل انسان مهلة من الوقت يبلغ معها أقصى البصرة ، عائداً

الى بيته من المسجد او غيره ، ثم يأمر صاحب شرطته فيخرج في الاسواق ، ويمشي بين الاحياء فلا يرى شخصاً الا أمر بقتله ...

وحدث ان حملوا الى زياد يوماً اعرابياً رأوه في الشارع بعد الموعد المعين فسأله : هل سمعت النداء ؟

قال الاعرابي : لا والله قد قدمت بحلوبة لي ، وغشيني الليل فاضطررتها الى موضع واقمت لأصبح ولا علم لي بما كان من الامر..

فقال زياد : اظنك والله صادقاً ، ولكن في قتلك صلاح الامة.

ثم أمر به فضربت عنقه .. وكذلك سار زياد في الناس سيرة الحاكم الشديد البطش ، الصعب المراس ، لا ترده عن البطش رحمة ولا شفقة ، حين ادرك ان في الرحمة الثورة ، وفي الشفقة الاختلاف.

وكان في ذلك كما وصفه ابو العباس المبرد في كتابه الكامل :

« يقتل المعلن ، ويستصلح المسر ، ولا يجرد السيف حتى تزول التهمة .. »

ولقد أرسل يوماً احد اعوانه ليأتيه برجل يرى رأي الخوارج فجاء به اليه ، فلما مثل امامه ، ذكر زياد الله ، ثم صلى على نبيه ثم ذكر ابا بكر وعمر وعثمان بخير ثم قال :

ـ قعدت عني فأنكرت ذلك ..

فذكر الخارجي رسول الله ثم ابا بكر وعمر بخير ، ولم يذكر عثمان ثم أقبل على زياد فقال : انك قد قلت قولا فصدقه بفعلك وكان من قولك « ومن قعد عنا لم نهجه ».. فأمر له بصلة وكسوة..

وهذه قصة تدلنا على ان زياداً مع اختلافه السياسي مع الخارجي لم يرَ كبير امر في قعوده عنه ، ما دام الخارجي لا يقاتل ولا

بعا رب سلطان امية .. وكان زياد يبعث الى الجماعة من الذين يعرف معارضتهم لسياسته ، فيقول :

ـ ما أحسب الذي يمنعكم عن اتياني إلا الرحلة (المشي) .

فيقولون : اجل ...

فيحملهم اليه ويقول : تعالوا إليّ واسمروا عندي .. يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفي ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر لان يعلم البواطن والظواهر من رعيته .. ولن يكون هذا إلا بالاجتماع اليهم والتحدث معهم ..

ولقد كان الناس لا يخافونه ويأمنونه ، لانه كان عند قوله وعهده ، فلم يكن يعاقب إلا الجاني والثائر ، وهو والحالة هذه يختلف عن كثيرين من السياسيين المعاصرين الذين يصطنعون ما يصطنعون من المظاهر السياسية عنيفة كانت ام لينة ، لا عن ايمان وجرأة واخلاص ، وانما عن خوف وتدجيل ، ومن المؤكد ان صراحته كفت العراق في عهده مؤنة الثورات والفتن ، ولا أدل على ذلك من الفراغ الذي احدثه موته ، ومن الثورات والقلاقل التي نشطت بعد وفاته ، وما كان لها من اثر ابداً في حياته ومدى ولايته ..

ولما توفي المغيرة ضمّ معاوية ولاية الكوفة الى زياد فأصبح نائب الملك في العراق ، بل حاكم المشرق كله ..

زياد والخوارج

وكان الخوارج لا يجرأون على الظهور في أيام زياد إلا قليلًا ، وسبب ذلك انه جعل القبائل ورؤساءها مسؤولين عن كل من يخرج

منهم ، فكانت القبائل اذا احست بالخوارج بينهم امسكتهم، وأتت بهم زياداً فينتقم منهم او يقتلهم .

وحدث مرة ان اخرج الخوارج معهم امرأة ، فظفر بها زياد فقتلها ثم عرّاها، فلم تخرج النساء بعد ذلك في ايامه ، وكن اذا دعين الى الخروج قلن : لولا التعرية لسارعنا.

وعمل زياد هذا من البراعة السياسية وبعدالنظر بالمكان الارفع، لأن وجود النساء في معسكر الخوارج كان يذكي نفوسهم ، ويشحذ عزائمهم ويزيد استبسالهم ، فقضاء زياد على (الخارجية) على الصورة التي ذكرناها كان قطعاً لظهور الخوارج ، واخماداً لثورتهم، واضعافاً لعزائمهم ، فلا يكون واحدهم اذا حمي الوطيس يدافع عن نفسه وعرضه، وانما يدافع عن نفسه فحسب، والمدافع عن نفسه اسرع الى الهرب من المدافع عن زوجه وعياله ، ولو اراد ذلك لما استطاعه وقدر عليه .

ولما رأى الخوارج اشتداد الامر عليهم .. ولما كانوا لا يرون كبير امر في قتل المسلم اذا كان يخالف معتقدهم ، ولما كان يصعب عليهم العيش في مكان لا يوجد فيه مسلمون ، فقد اداهم اجتهادهم الى السكنى مع المسلمين ، والسكوت عنهم ، على نحو ما كان يفعل رسول الله مع المشركين اول الدعوة في مكة ..

وتتبع ابن زياد الذي ولي البصرة بعد ابيه الخوارج ، فقتل منهم عدداً كبيراً ، وفعل مثل ذلك في النساء الخارجيات ، فقد اخذ واحدة منهم اسمها البلجاء ، فقطع يديها ورجليها ورمى بها في السوق..

والواقع ان المعارك كانت شديدة جاهمة بين الخوارج والدولة الاموية ، وكان الخوارج يحاربون الامويين حرباً لا هوادة فيها

ولا مصانعة ، وكان همّ ولاة الامر عهد معاوية ومن أتى بعدمعاوية محاربة هذه الطائفة وانزال العقوبات الصارمة بكل من يؤيدها ويحارب تحت لوائها ...

وكان ابن زياد اشد من والده فتكاً ،وأضعف سياسة ،وأقل حزماً ، وكان الخوارج لا يعرفون تستراً ولا تقية على نحو ما تقول به الشيعة وتعمل به ..

كانوا شعلة تحرق ما يقف في طريقها، كانوا ناراً في الايمان الجارف القوي تلهبه الضحايا الكثيرة التي كانت تقدم دائماً وابداً في كثير من التنكيل والاسراف قرباناً على مذبح الفكرة الجديدة ...

كذلك أصبحت البصرة بصورة خاصة والعراق بصورة عامة ، منذ مقدم ابن زياد مرجلاً يغلي بما فيها من خوف وقلق واضطراب ، وكان الخوارج اول الضحايا ... ونالهم من البطش والنكال النصيب الاوفر ، وكان القتل فيهم قاسياً شرساً صلباً كأشد ما يكون الترويع والارهاب ، كان تقطيعاً للأيدي والأرجل في الساحات العامة ، وملاحقة دائمة لكل مؤمن بمذهبهم داعٍ اليه..

وكان الخوارج رجالاً ونساء مثلاً في الشجاعة والجرأة ، وأبلى النساء بلاء الرجال في مختلف المعارك والزحوف ، واشتد حقد زياد على الخارجيات ، وكان يغيظه ان رسول الله نهى عن قتل نساء المشركين ممن يشتركن في الحروب ضده فكيف بنساء المسلمين ، ولكن النساء الخارجيات كن شيئاً أخطر وأعظم ، كن بوجودهن في الجيش يرفعن معنوياته ويغذين من جرأة جنوده،بحيث كان الخارجي الواحد يقاتل كعشرة من الرجال ، ولما كان لا بد من القضاء على

هذه الفتنة الجارفة ، فلا بد لابن زياد من استعمال ألوان من التنكيل لم يكن للناس بها معرفة قبله ، واذن فقد أقسم على نفسه لئن ظفر بخارجية ليجعلنها نكالاً لسواها ..

وكانت (البلجاء) من الخوارج المتعلمات التقيات الحافظات الباسلات، تجلس الى ابي بلال في داره ، وهو من رؤوس الخوارج فتسمع عنه وتأخذ منه ، وفي ذات يوم اخبر أحد الخوارج ابي بلال بما يعتزمه ابن زياد من التنكال بالبلجاء اذا ظفر بها ، فاضطرب من في المجلس لهذا الخبر ، ولم يكن اضطرابهم فرقاً من الموت ، فانه سبيل لا بد من سلوكه ، ولكنهم خافوا ان تؤخذ صديقتهم وان يعمد ابن زياد الى تعريتها بعد ان يقتلها .. فقد كان الخوارج يعدون هذا عاراً كبيراً ..

وذهب ابو بلال الى دارها ليسأل عنها ، فلما وجدها نصحها بالاختفاء والهرب من وجه الامير فقالت له وهي هادئة القلب ثابتة العواطف :

ـــ ان يأخذني فهو أشقى بي ..

وكذلك جرى على البلجاء ما جرى على غيرها ، فقد اخذها ابن زياد ، فقطع يديها ورجليها ثم صلبها عارية امام الناس ..

كبير من الخوارج

وحبس ابن زياد أبا بلال مرداساً ، بعد ذلك ، ثم اطلقه من حبسه ، فخرج عليه ، فبعث اليه ابن زياد من قتله ونكل بأصحابه..

وكان من أمر أبي بلال انه لما رأى تنكيل ابن زياد بالخوارج جمع اصحابه وقال لهم :

ــ انه والله لا يسعنا المقام بين هؤلاء الظالمين ، تجري علينا احكامهم ، مجانبين للعدل ، والله ان الصبر على هذا لعظيم ، وان تجريد السيف واخافة السبيل لعظيم ، ولكننا ننتبذ عنهم ، ولا نجرد سيفاً ، ولا نقاتل إلا من قاتلنا ..

فاجتمع اليه من اصحابه زهاء ثلاثين رجلًا ، وولوه امرهم ، فسار بهم حتى نزل بالأهواز ، فمر به مال يحمل لابن زياد وقد قارب اصحابه الأربعين ، فحط ذلك المال فأخذ منه عطاءه وأعطيات اصحابه ، وردّ الباقي وقال لحفظة المال :

ــ قولوا لصاحبكم اننا قبضنا اعطياتنا ..

فأرسل اليه ابن زياد جيشاً بقيادة اسلم بن ذرعة في ألفين من الجند ، فحمل الخوارج عليه حملة رجل واحد ، فانهزم هو وأصحابه من غير قتال ، فغضب عليه ابن زياد غضباً عظيماً وأنكره .. وكان اسلم بعد ذلك اذا خرج للسوق او مرّ بصبيان البلد صاحوا به:

ــ ابو بلال خلفك ...

ثم ندب عباد بن علقمة في اربعة آلاف ، فحاول ابو بلال ان يرد قائد الجيش عن القتال فلم يفعل ، فاقتتل الفريقان حتى صار وقت الصلاة ، فطلب الخوارج هدنة ليصلوا ، فقال لهم جند ابن زياد : لكم ذلك .

فرمى الخوارج اسلحتهم وبدأوا الصلاة ، فهجم عليهم جند ابن

زياد فقتلوهم عن آخرهم[1] ، وقتل الخوارج عباد قائد الجيش غيلة بعد ذلك .. فغضب ابن زياد غضباً عظيما لقتل الخوارج قائده ،وأخذ بالتنكيل بهم تنكيلاً مريعاً ، المسالم منهم والمحارب ، الحر والسجين حتى قتل منهم خلقاً كثيراً ..

بعض رجالهم

ولقد جيء الى زياد ، بعروة بن ادية ، وهو اول من سلّ سيفاً من سيوف الخوارج ، وكان قد نجا من واقعة النهروان ، وجيء معه بمولى له ، فسأله زياد عن ابي بكر وعمر بن الخطاب فقال خيراً ، وسأله عن عثمان فأحسن القول فيه في السنين الاولى من خلافته ، ثم شهد عليه بالكفر فيما بعدها ، ولما سأله عن (علي) احسن الرأي فيه حتى حكم ، ثم كان رأيه فيه كرأيه في عثمان ، ولما سأله عن معاوية وهو الخليفة القائم سبه سباً قبيحاً ، ثم سأله زياد عن نفسه ، فشتمه شتما فظيعاً ...

فأمر به زياد فضرب عنقه ثم دعا مولاه فسأله عنه قائلاً :

ــ صف لي اموره ...

فقال : ما أتيته بطعام بنهار قط، ولا فرشت له فراشاً بليل قط. يعني انه قائم يصلي بالليل ، صائم بالنهار ...

---

(١) وهناك وصف آخر : وهو انهم توادعوا للصلاة جميعاً ورموا باسلحتهم الى الارض ، وراحوا يصلون فانتهى جماعة ابن زياد من الصلاة قبل الخوارج ، الذين كانوا ما بين راكع وساجد وقائم في الصلاة ، فمال عليهم عباد ومن معه فقتلوهم جميعاً ...

ولما رأى الخوارج اشتداد الضغط عليهم ، ولما كانوا لا يرون كبير امر في قتل المسلم إذا كان يخالف معتقدهم ، ولما كان يصعب عليهم العيش في مكان لا يوجد فيه مسلمون ، فقد أداهم اجتهادهم الى السكنى مع المسلمين على نحو ما كان يفعل رسول الله من السكنى مع المشركين اول الدعوة في مكة .

وكان ان حبس ابن زياد « ابا بلال » مرداساً — كما قدمنا — وكان خارجياً مشهوراً مجتهداً كثير العبادة ، فرق له السجان لما رآه من حسن لفظه وشدة عبادته ، فكان يطلقه بالليل على ان يعود له آخره ، ومضى على ذلك زمن ، ثم رأى ابن زياد ان يقتل من في سجنه منهم ، وبلغ الخارجي ما صمم عليه ابن زياد ، وكان خارج السجن ، فتأهب للعودة اليه ، فقال له اهله :

— اتق الله في نفسك فانك ان رجعت قُتلت .

فقال : اني ما كنت لالقى الله غادراً .

ثم شفع له السجان — وهو اخو زياد من الرضاع — فنجا وكان له شأن بين الخوارج بعد ذلك حيث ثار في كوزستان وقتل فيها .

وكانت روح الخوارج الديموقراطية من الطراز الاول ، ولكن تعصبهم الغريب العجيب أخفاها وغشاها ، فلم يحفلوا بالواجبات الانسانية المقررة ، وكانوا مزيجاً غريباً من المتناقضات ، فقد فرقوا بين المسلم وغير المسلم تفريقاً عجيباً فاستباحوا دم الاول ، وحقنوا دم الثاني لانه من اهل الذمة ، ولان القرآن امر بالمحافظة عليهم ، وهم يشابهون في بعض عقائدهم وشدتهم (البيورتيين) جماعة المطهرين الانكليز الذين ارادوا اعادة الكنيسة الانكليزية الى عهد المسيح من التقشف والبساطة ،

ونظرية الخوارج السياسية في انتخاب الخليفة ، وعزله عند فساده ، كانت تلابس النظرية الانكليزية التي ادت الى الثورة الانكليزية ، ومن بعدها الثورة الافرنسية ..حتى كأن الثوار الغربيين اخذوا فكرتهم منهم ...

وللدلالة على اخذ الخوارج بالحياة الاسلامية الاولى،ان دستورهم كان دستور الخلفاء الاولين ابي بكر وعمر ، فقد كانوا يعتبرون اعمالهما سنة تتبع ، وحجة قائمة ، وهذا طبعاً مع التشويه والقسوة والشدة التي امتزجت مع معتقداتهم ، وكانوا اذا ارادوا مغادرة بلد ما ، عدوا انفسهم (مهاجرين) كالمسلمين الاولين ، والخوارج لفظ اطلقوه هم على انفسهم لخروجهم على ائمة الجور..

ولما تولى زياد امر العراق سجن كل خارجي عثر عليه في العراق، فقطع بذلك دابرهم ، فلما خلفه ابنه عبيدالله اطلق سراحهم ، فعاثوا في الارض فاعادهم الى السجن ، او اعاد من ظفر به منهم،وقتل منهم جماعة كثيرة،وكان الخوارج في عهده يقتلون كل من قتل احدهم،حتى صعب على عبيدالله في فترة من الزمن ان يجد شخصاً يقتل خارجياً .

— ٣ —

دستور الخوارج

مذاهب الخوارج ودستورهم

نشأ الخوارج في الحرب ، وعاشوا على اطراف السيوف ، خلقتهم معركة صفين ، فلم تكف مئات المعارك والزحوف لتمزيقهم وتشريدهم ...

وقضى الخوارج زهاء خمسين سنة تتجاذبهم السيوف ، وتتخاطفهم الزحوف حتى جاء قضاء الله ، فتمزقوا جماعات صغيرة في الامصار وناموا على امجاد وانتصارات لو وفقوا فيها لتبدل وجه التاريخ العربي وتعدلت نظم الحكم في الاسلام ...

ولقد اختلف الخوارج اول ما اختلفوا مع علي بشأن التحكيم ، فانكروا عليه قبوله به ، ورفضوا ان يحكم احد في كتاب الله وقالوا كلمتهم المشهورة .. « لا حكم إلا الله » ...

واداهم اختلافهم في امر التحكيم إلى البحث في الخلافة ، فقالوا بصحة خلافة ابي بكر وعمر لصحة انتخابهما ، وبصحة خلافة عثمان في سنيه الاولى ، فلما غيّر وبدل ولم يسر سيرة ابي بكر وعمر ، واتى

بما اتى من احداث وجب عزله ...

واقروا بصحة خلافة علي ، ولكنهم قالوا انه اخطأ في التحكيم وحكموا بكفره لما قبل به ، وطعنوا في اصحاب الجمل ... مثل طلحة والزبير وعائشة ، كما حكموا بكفر ابي موسى الاشعري وعمرو بن العاص ...

ووضعوا نظرية للخلافة خلاصتها : ان الخلافة يجب ان تكون باختيارٍ حر من المسلمين ... واذا اختير احد لها فليس يصح ان يتنازل او يقبل بالتحكيم ، وليس بضروري ان يكون الخليفة قرشياً ، بل يصح ان يكون من قريش ومن سواها ، ولو كان عبداً ، وعلى الخليفة ان يخضع خضوعاً تاماً لما امر الله به .. وإلا وجب عزله ..

ولهذا امروا عليهم من اختاروه منهم ، وسموا عبدالله بن وهب الراسي امير المؤمنين ، ولم يكن قرشيا ، فخالفوا بذلك الشيعة التي ترد الخلافة لآل رسول الله ، وبعض اهل السنة القائلين بان الخلافة في قريش ، وهذه النظرية هي التي دعتهم الى الخروج على خلفاء بني امية وبني العباس ، لاعتقادهم انهم جائرون غير عادلين ، وان شروط الخلافة كما اقرها الخوارج لا تتوفر فيهم .

وكانت اغراض الخوارج في اول الامر سياسية محضة ، ثم نراهم في عهد الملك بن مروان قد مزجوا تعاليمهم السياسية بابحاث لاهوتية ، واكبر من كان له أثر في ذلك الازارقة ـ اتباع نافع بن الازرق ـ وأهم ما قرره الخوارج في ذلك ، ان العمل باوامر الدين ـ من صلاة وصيام وصدق وعدل ـ جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد وحده ، فمن اعتقد ان لا آله إلا الله ، وان محمداً رسول الله ، ثم لم

يعمل بفروض الدين ، وارتكب الكبائر فهو كافر ...

ولم يكن الخوارج كتلة واحدة ، ولو اتحدوا لأثخنوا في الدولة الاموية ، ولكن الطبيعة البدوية العربية كانت واضحة فيهم ، فقد كانوا يختلفون فيما بينهم ، ويقـــاتلون بعضهم بعضاً ، وبلغ عددهم نحواً من عشرين فرقة ، ولكنهم اتفقوا في مجموعهم على مابسطناه من نظرياتهم وان اختلفوا في التفصيلات ، ومن اشهر فرقهم (الأزارقة) أتبـــاع نافع بن الأزرق .. وكان عالماً فقيهاً ومن مبادئه : انه لا يحل لاصحابه المؤمنين ان يجيبوا احداً ليس منهم الى الصلاة اذا دعاهم اليها ... ولا ان يأكلوا من ذبائحهم ، ولا ان يتزوجوا منهم ، وان غيرهم ــ اي غير الخوارج ــ مثل كفار العرب وعبدة الاوثان لا يقبل منهم الا الاسلام او السيف ...

ومن فرقهم (النجدات) اتباع نجدة بن عامر ، ومن تعاليمه : ان المخطىء بعد ان يجتهد معذور ... وان الدين امران معرفة الله ومعرفة رسوله ، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى ان تقوم عليهم الحجة ، ومن أداه اجتهاده الى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، وعظموا جريمة الكذب على الزنا وشرب الخمر ...

ومنهم (الاباضية) نسبة الى رئيسهم عبدالله بن أباض التميمي ، ولا يزال له أتباع في المغرب حتى اليوم ، وهؤلاء لم يتغالوا في الحكم على مخالفيهم كالازارقة ، بـــل قالوا : يحل التزاوج منهم ، ويتوارث الخارجي وغيره ، وكانوا أميل الى المسالمة ، فلا يقاتلون احداً إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال .. وظهر عبـدالله هذا في النصف الثاني من القرن الأول للهجرة وعاش اتباعه في اكثر

أحوالهم مسالمين للدولة ..

ميزات الخوارج

وكان اكثر من اعتنق مبدأ الخوارج من العرب البدو،وانضم اليهم بعض الموالي اعجاباً برأيهم الديموقراطي في الخلافة ، ولكن هؤلاء قليل بينهم ، لان الخوارج كانوا عرباً يحتقرون سواهم ويزدرون غيرهم .

والناظر في تاريخهم يتبين له فيهم ميزات واضحة اهمها : التشدد في العبادة والانهاك فيها .. يصفهم الشهرستاني : بأنهم اهل صوم وصلاة ..ويصفهم المبرد صاحب «الكامل» :« بأنهم في جميع اصنافهم يبرأون من الكاذب ومن ذي المعصية الظاهرة » .

ولقد ضُرب بهم المثل في التقوى والاغراق في العبادة ، ولعل خير ماقيل فيهمما قاله ابو حمزة الخارجي في وصف اصحابه :« فنظر الله اليهم في جوف الليل منحنية اصلابهم على اجزاء القرآن كلما مرّ احدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها، واذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين اذنيه ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وانوفهم وجباههم ، واستقلوا ذلك في جنب الله ، حتى اذا رأوا السهام قد فُوقت ، والرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعدت الكتيبة بصواعق الموت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فأسرعت اليه سباع الأرض ، وانحطت اليه طير السماء ، فكم من عين في

منقار طير ، طالما بكى صاحبها في جوف الليل من خوف الله ، وكم من كف زالت عن معصمها ، طالما اعتمد عليها صاحبها في جوف الليل بالسجود لله » .

ومع شدة تقواهم وخوفهم من الله ، كانوا يغرقون في عقيدتهم، فيعدون مرتكب الكبيرة ــ واحياناً الصغيرة ــ كافراً ، وخرجوا على ائمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبونها ، وتشدد كثير منهم في النظر الى غيرهم من المسلمين فعدوهم كفاراً ، بل كانوا يعاملونهم اشد من معاملة الكفار .. ، حتى كان كثير منهم لا يرحم المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني ، بل لم يرضوا من مخالفيهم ان يقولوا : « ان علياً اخطأ في التحكيم ، وعثمان اخطأ فيما احدث » . بل لا بد ان يقروا بكفرهما وكفر من ناصرهما،ولعل هذا التشدد الذي ليس له مبرر لا في القرآن ولا في السنة ، واقدامهم على قتل معارضيهم هو اكبر ما شوّه حركتهم وقضى عليها ...

وكانوا شجعاناً ما رأى خصومهم انضى منهم سلاحاً ، واجرأ هجوماً ، وامتن طعناً ، وفي التاريخ امثلة كثيرة على جرأتهم وبسالتهم وقوتهم ... فقد ارسل ابن زياد (اسلم بن زرعة) في ألفين لمحاربة فرقة من الخوارج ، فهزمه (ابو بلال) الخارجي في اربعين من اصحابه ...

وأبلى نساؤهم معهم في القتال خير بلاء ، حتى لقد كانت المرأة تساوق الرجل في جرأته وهجومه وسرعته ، واقدامه على الموت ..

وهذه الصفات : الشدة في الدين ، والاخلاص للعقيدة والشجاعة النادرة ، يضاف اليها العربية الخالصة ، هي التي جعلت للخوارج ادباً

خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً .. تخير للفظ ، وقوة في السبك، وفصاحة في الاسلوب ، وما وصف ابو حمزة لاصحابه في هـــذا الفصل ، إلا قطرة من فيض ، ونقطة من بحر .

الخوارج بعد موت يزيد

ولقد قصصنا من اخبار الخوارج في عهد معاوية وولاته في العراق ألواناً ، وكيف شدّد هؤلاء التكير عليهم ، واثخنوا فيهم بحيث اجبروهم على السكون والهدوء ، فلما اضطربت الحالة السياسية في الدولة بعد وفاة يزيد بن معاويه ، وثار عبد الله بن الزبير بمكة قبل وفاته ، ولما كان الخوارج يجمعون على محاربة الامام الجائر ، فقد راحوا يساعدون (عبد الله بن الزبير) في حربه مع جيش (يزيد) ، وراحوا يصدون هذا الجيش عن اقتحام مكة بلد الله الحرام ..

وظلوا مع (ابن الزبير) حتى مات (يزيد) وانجلى جيشه عن مكة ، وكان زعيمهم في مكة نجدة بن عويمر ، وكان عالماً يصلي بمكة بحذاء ابن الزبير ، ثم رأى الخوارج بعد هذا ان يسألوا (ابنا لزبير) في شؤون من المسائل يهمهم معرفة موقفه فيها ، ليعلموا فيما اذا كان يوافق مذهبهم ، فاجتمعوا اليه وكان نقاش وحوار ، ظهر الاختلاف فيه بيّناً ظاهراً بين الخوارج وابن الزبير فتركوه وشأنه وغادروه..

وتذهب بعض المصادر الى ان نجدة بعد ان غادر ابن الزبير ستولى على اليامة ، وعظم امره حتى ملك اليمن والطائف وعمان والبحرين ووادي تميم وعامر ، ثم ان اصحابه نقموا عليه احكامـــاً احدثها في مذهبهم ، فخلعوه وجعلوا اختيار الامام اليه فاختار لهم

ابا فديك ،فما عتم هذا ان ارسل لهمن قتله ، فتولاه بعد موته طوائف من اصحابه وقالوا قتل مظلوماً ...

وتاريخ الخوارج فيه من الطرافة ما ليس في تاريخ جماعة ثائرة مثلهم ، كانوا من اخلص الناس لعقيدتهم ، ومن أبسل الناس في الدفاع عنها ، ومن أصدق الناس واصرحهم ، ولكنهم كانوا من السذاجة بالمكان الارفع ، فعقائدهم ساذجة وسبيلهم في دعوة الناس اليها لا يحتمل المواربة والالتواء ، وهم بدو مـــا في ذلك شك في اخلاقهم وحروبهم ومذاهبهم ... سواء منها السياسية أم الدينية ، ولما اختلفوا فيما بينهم كما سيأتي تفصيله كان اختلافهم ظاهر البساطة، بادي السذاجة ..

نافع بن الازرق

وكان نافع بن الازرق شجاعاً مقدماً في فقه الخوارج ، وكان في حبس بن زياد في البصرة لمـــا مات يزيد بن معاوية ، فخرج من الحبس مع اربعمائة من انصاره فأفسدوا الدنيا والناس على ابن زياد وسياسته ، فتحول ابن زياد من قصر الامارة الى قبيلة الازد مستجيراً بهم ، واقبـــل الخوارج يأتون مربد البصرة كل يوم فيقفون به ، ويعيبون الظلم ويدعون الى قتال السلطان والجبابرة ، وكان المربد لا يزال مركز الحركة الادبية في عهد الامويين، ولم يكن للخوارج رأس منهم ، ثم امروا عليهم نافع بن الازرق ، وكان ذا لسان وعلم واحتجاج وصبر على المنازعة والمقارعة .

وتقول رواية اخرى : ان نافعاً كان ممن دافع عن مكة مع

عبدالله بن الزبير ، فلما وقع الاختلاف بين الخوارج وابن الزبير تفرقوا ، فسارت جماعة الى اليمامة مع (نجدة) كما قدمنا ، وطائفة الى البصرة ، وسار فيمن سار الى البصرة نافع بن الازرق ، وبنو الماحوز ــ وهم الزبير وعثمان وعلي وعبدالله وعبيدالله بنو بشير بن يزيد المعروف بالماحوز ــ وهم من بني تميم ، وكلهم كانوا من زعماء الازارقة ، فلما صاروا الى البصرة نظروا في امورهم فأمروا عليهم نافعاً ، فمضى بهم الى الاهواز وهي ولاية كبيرة بين البصرة وفارس في سنة أربع وستين .. فأقاموا بهـــا لا يهيجون أحداً ، ويناظرهم الناس ،وليس بينهم اختلاف وهم لا يزيدون عن ثلاثمائة وخمسين رجلًا...

وتقول بعض المصادر انهم غادروا البصرة الى الاهواز وطردوا عمال بن زياد منها ، وجبوا الفيء ، ولم يزالوا على رأي واحـــد ، يتولون أهل النهروان ومرداساً ومن خرج معه بالتقدير والتعظيم ، سائرين على سيرة هذا السلف من الخوارج حتى جاء مولى لبني هاشم الى نافع فقال له :

ــ إن اطفال المشركين في النار ، وان من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الاطفال لنا حلال ...

فقال له نافع : كفرت !

فقال له : ان لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلني « قال نوح ربّ لا تذر على الارض من الكافرين دياراً ، انك ان تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » .

فمال نافع الى مقالته ،وبسط سيفه فقتل الرجال والنساء والولدان وقال :

ـ انهم كفار العرب لا يقبل منهم إلا الاسلام ـ على مذهب الخوارج ـ او السيف .

وهنا ظهر الاغراق في المذهب الخارجي حين اعتبروا أنفسهم المؤمنين دون سواهم من المسلمين ، وراحوا يقاتلون سواهم ممن ليس على مذهبهم ... وزاد نافع اغراقاً فبرىء من القاعدين عن القتال من الخوارج ، واستحل قتلهم متأولاً الآية : « وقعد الذين كذبوا الله ورسوله » .

وقال : ان من تخلف عن القتال من الخوارج لا نجاة له ، ودعا اصحابه الى البراءة منهم ، وانه لا يحل لهم مناكحتهم ، ولا أكل ذبائحهم ، ولا يجوز قبول شهادتهم ، واخذ علم الدين عنهم ، ولا يحل ميراثهم ، فاجابه الى قوله هذا بعض الخوارج وخالفه البعض الآخر ففارقوه ...

وكان ممن خالفه نجدة ـ على قول بعض الرواة ـ وقال : المقام في دار الكفر حلال ..

وسار الى اليمامة مع أصحابه ، وبرىء من نافع وجماعته ...

وخالفه أيضاً عبدالله بن أباض ، والصفرية ـ وقد سموا بذلك لصفرة وجوههم ـ فاعتزلوه ، وكتب عبدالله الى نافع ينكر عليه قوله بكفر القاعدين عن القتال من الخوارج ، واستحلال المال قبل الحرب ، وقتل الاطفال ، فلم يرجع نافع عن مقالته ، وظل قوم من الخوارج على ولائه ، ثم استولى على الاهواز كما قدمنا ، واشتدت شوكته ، وكثرت جموعه ، وأخذ يعترض الناس ، ويقتل الاطفال ، فاذا أُجيب الى مذهبه اكتفى بجبي الخراج ، ولما رأى

اشتداد شوكته ، وظهور أمره ، قرر مهاجمة البصرةوالاستيلاء عليها واستباحة أهلها ...

الموقف في البصرة

وبلغت غاياته هذه اهل البصرة فارتاعوا ، وخافوا العاقبـــة ، وأدركوا انه ان دخل بلدهم أذلهم وأثخن فيهم ،فاجتمع منهم عشرة آلاف ذهبوا الى (الاحنف بن قيس) وسألوه ان يؤمر عليهم أميراً يحميهم ويجاهد بهم .. وكان الاحنف زعيم بني تميم ، شخصية بارزة من هذه الشخصيات الفذة التي لعبت دورها في الصدر الاول من الاسلام ...

كان ضئيل الجسم صغير الرأس ، متراكب الاسنان ، مائـل الذقن ، ناتيء الوجه ، غائر العينين ، خفيف العـــارضين ، أحنف الرجل ، فيه حظ عظيم من القبح وهول المنظر ، وهو مع هـــذا السيد المطاع في عشيرته بني تميم ، وهي قبيلة كانت في هذا العهد من أقوى القبائل وأضخمها اسماً ...

ألم يقل الشاعر فيهم :

إذا غضبت عليـــك بنو تميم   حسبت الناس كلهم غضابا ...؟

وكذلك كان الاحنف سيد هذه القبيلة الضخمة التي تفرقت الى غير قبيل واحد ، وكانت منازلها البصرة ، بعـد ان شهدت فتوح خراسان وعلى رأسها الاحنف في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب ، ولما نشبت الحرب بين علي ومعاوية ، أيد الاحنف علياً ، فلما دانت الامبراطورية العربية لمعاوية بايع معاوية ، ولكنه ظل محتفظا بحبه

لعلي ، وان سكت عن معاوية ، ولما اراد معاوية ان يبايع ليزيد لم يرض الاحنف بذلك ، وتحدث الى معاوية برأيه وصارحه بقوله لما سأله رأيه :

ــ أخاف الله ان كذبت .. وأخافكم ان صدقت ..

فلما انهار ملك بني سفيان بعد وفاة يزيد ، وأعلن عبدالله بن الزبير خلافته ، كان العراق من الامصار التي أيدت عبد الله بن الزبير بعض التأييد، وكان ابن الزبير قد ولى على البصرة عاملاً من قبله وهو عبدالله بن الحرث ، فذهب اليه الاحنف وتحدث اليه بالموقف الحرج الذي يهدد البصرة من الخوارج ، ونصحه بارسال جيش من اهلها يقف في وجه الخوارج ويردهم ، فأمّر العامل على مقاتلة البصرة (مسلم بن عيسى بن كريز) وكان شجاعاً ، فلما خرج بجنوده الى جسر البصرة أقبل على رجاله وقال :

« ايها الناس اني ما خرجت لامتيار ذهب ولا فضة ، واني لأحارب قوماً ان ظفرت بهم فما وراءهم الا السيوف والرماح ، فمن كان شأنه الجهاد فلينهض ، ومن أحب الحياة فليرجع .. »

فرجع نفر يسير ، ومضى الباقون معه ، فلما صاروا (بدولاب) خرج اليهم نافع واصحابه ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، حتى تكسرت الرماح ، وعقرت الخيل ، وكثرت الجراحات ، فقتل (ابن كريز) قائد الجيش ، وقتل نافع امير الخوارج ، فقام بأمر الخوارج عبيد الله بن الماحوز بعد مقتل نافع ، واقتتل اهل البصرة والخوارج بعد مقتل صاحبيها اياماً ، وهذه الحرب تسمى حرب (دولاب) وهي من حروب الخوارج المشهورة انتصف فيها الخوارج من أهل البصرة،

وانتصف فيها اهل البصرة من الخوارج ..فلم يكن فيها غالب ولا مغلوب ...

وكتب اهل البصرة الى ابن الزبير بأمر الخوارج ، وكيف ان عاملهم لا يقاتلهم ، فولى ابن الزبير البصرة (عمر بن عبيد بن معمر) ، فندب هذا أخاه لقتال الأزارقة ، فخرج اليهم في اثني عشر الفاً ، وكان (ابن الماحوز) في سوق الاهواز فنهض اليه وحاربه، وانتصرت الخوارج في هذه المعركة ، وقتل أمير جند البصرة ، وكان ذلك في ذي القعدة سنة ٦٥ للهجرة ، وعاد الخوارج الى الاهواز ... فلما بلغ خبر الفشل عبدالله بن الزبير وهو بمكة ، كتب الى عامله في البصرة بعزله ، وعين مكانه القباع واسمه (الحارث بن عبدالله بن ابي ربيعة المخزومي)..

وكان عبيدالله بن الماحوز يُخاطب في هذه الاثناء من جماعته بالخلافة ، وكان قد غلب على سواد البصرة وخافه الناس خوفاً شديداً ، فذهبوا الى الاحنف يشكون سوء حالهم فذهب الى القباع فقال له :

ــ أصلح الله الامير ان هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا، فلم يبق إلا ان يحصرنا في بلدنا حتى نموت هزالا ...

قال القباع : فسموا لي رجلاً يلي الحرب ..

فقال الاحنف : لا أرى لها إلا رجلاً هو المهلب بن ابي صفرة .

فقال القباع : أهو هذا رأي جميع أهل البصرة ، فاجتمعوا اليّ في غد لأنظر ...

وكان قائد ابن الماحوز قد وصل الى البصرة ، وعقـــد الجسر ليعبر اليها ، فخرج أكثر أهل البصرة له ، وانضم الى الخوارج جميع من كان في كور الاهواز وأهلها رغبة ورهبة .. ووافاه البصريون في السفن وعلى الدواب ، فاسودت بهم الارض فقال قائد الخوارج لما رآهم :

ـ أبى قومنا إلا كفراً ..

وقطع الجسر ، وأقام الخوارج بازاء أهل البصرة لا يبدأونهم الحرب ، واجتمع الناس عند (القباع) وخافوا الخوارج خوفاً شديداً ، واستقر الرأي على اختيار المهلب لحربهم وقتالهم ..

فوجه اليه القباع فأتاه فقال له : يا أبا سعيد قد ترى ما قد رهقنا من هذا العدو ، وقد أجمع أهل مصرك عليك ..

وقال الاحنف : يا أبا سعيد إنا والله ما أثرناك ، ولكنا لم نرَ من يقوم مقامك ..

فقال المهلب : اني عند نفسي لدون ما وصفتم ، ولست ارفض ما دعوتم اليه ، لكن لي شروطاً اشترطها ..

قالوا : قل .

قال المهلب : عليّ ان انتخب من احببت ..

قال الاحنف : لك ذلك ..

قال المهلب : ولي امرة كل بلد اغلب عليه ..

قالوا : لك ذلك ..

قال : ولي فيء كل بلد اظفر به ..

قال الاحنف : ليس ذاك لك ولا لنا ، انما هو فيء المسلمين ، فان سلبتهم اياه كنت عليهم كعدوهم .. ولكن لك ان تعطي اصحابك من فيء كل بلد تغلب عليه ما احببت .. وتنفق منه على محاربة عدوك ، فما فضل عنكم كان للمسلمين ..

فقال المهلب : قد قبلت ..

وكتبوا بينهم بذلك كتاباً وتولى المهلب محاربة الخوارج ..

— ٤ —

المهلب والخوارج

من هو ؟

كان أبو صفرة والد المهلب من العرب (الازد) الذين نزلوا البصرة في عهد الفاروق عمر بن الخطاب ، وولد له المهلب بها ، فرباه تربية عالية ، فظهر بين الناس سيداً نبيلاً..وفارساً مغواراً وشجاعاً مقداماً ...

وحارب المهلب أول نشأته وفجر شبابه وفي عهد معاوية على حدود السند والهند ، ويذكر (ابن الاثير)في حوادث سنة أربع واربعين ، ان المهلب غزا فيها ثغر السند ، فأثخن في العدو ، وظفر به ...

ونجد في حوادث سنة سبع واربعين أن المهلب كان في خراسان يغزو بعض جبال الترك ، وأنه لما حاول العدو تطويقهم تمكن المهلب بالحيلة من النجاة فسلم الناس بما معهم من الغنائم ...

ونجد المهلب مع الغزاة في سنة إحدى وستين أيام يزيد بن معاوية ، ونجد ان يزيداً استعمل مسلم بن زياد على خراسان،و كتب يزيد إلى عبيدالله بن زياد ان ينتخب لاخيه ستة آلاف فارس، وقيل الفي فارس ، فاختار له جماعة منهم المهلب بن أبي صفرة ، وسار مسلم الى خراسان ، وعبر النهر غازياً ، وكان عمال خراسان قبله يغزون العدو فاذا دخل الشتاء رجعوا الى مرو ، فاذا انصرف المسلمون اجتمع ملوك خراسان بمدينة مما يلي خوارزم ، فتعاقدوا ان لا يغزو بعضهم بعضاً ، وان يكونوا جبهة واحدة امام المسلمين ، فكان المسلمون يطلبون من امرائهم غزو هذه المدينة ، فيأبون عليهم ، فلما قدم (مسلم) ، ألحّ عليه المهلب وسأله التوجه الى تلك المدينة ، فوجهه في ستة آلاف وقيل في أربعة ، فحاصرهم ، فصالحوه على نيف وعشرين الف ، وكان في صلحهم ان يأخذ ما يريده ، فكان يأخذ الدابة والمتاع وغيرها بنصف ثمنها ، فبلغ قيمة ما أخذه خمسين الف الف ، فمضى بها الى مسلم ، فأكبره وارتفعت قيمته عنده ، وأخذ (مسلم) من ذلك ما أعجبه وبعث به إلى يزيد ..

فلما مات يزيد بن معاوية ، واشتدت الفتن في الامبراطورية ، دعا (مسلم) الناس في خراسان الى البيعة على الرضا.. حتى يستقيم أمر الناس على خليفة ، فبايعوه ثم نكثوا بعد شهرين ، وكان محسناً اليهم ، محبوباً عندهم ، فلما خلع عنهم استخلف عليهم المهلب ، وكان من الازد اليمنية ، فعتب عليه المضريون ، فقسم خراسان الى قسمين ، واضطربت الأحوال في خراسان ، وغادرها المهلب لما استقل عبدالله بن الزبير بالحجاز والعراق ، فولاه ابن الزبير خراسان

وبينا هو يستعد للسفر اليها.. جاءه أهل البصرة يسألونه مساعدتهم في حرب الخوارج على نحو ما فصلناه في الفصل السابق .

براعة المهلب

والمهلب من صفوة قواد العرب وخيارهم ، ومن ألمعهم وأبرعهم في الفن العسكري والخطط العسكرية التي راح يداور بها خصومه الاشداء ..حتى ضاقوا به ذرعاً واطلقوا عليه اسم الساحر ..

ولم يكن الخوارج أقل منه كيداً وحزماً ولا جرأة وبسالة ، ولكنهم لم يكونوا مثله تعبية ودراية في الفن العسكري ، وحسن ادارة لجيشه وبلاء في زحوفه وهجماته ، وان كانوا أقوى من جيشه قلباً ، واكثر ايماناً في دفاعهم عن عقيدتهم ، واستبسالاً في سبيل مبدأهم ، حتى أعجزهم وأعجزوه وحتى قالوا : لم نرَ مثل المهلب دراية وحسن تدبير وبلاء في الحرب ..

وتجمع المصادر التي بين أيدينا على ان المهلب قد وفق في حروبه مع الخوارج الى أبعد حدود التوفيق ، وأنه صبَّ عليهم من البلاء ما لم يروا مثله ، ولم يمكنهم من نفسه ولا من جنده ، وكان في وقائعه معهم يحكم تدبير أمره وحركات جنوده ، ويخندق على نفسه وجيشه ، ويضع المسالح في موضعها ــ وهي الفرقة التي يوكل اليها تدبير الاسلحة الحربية والذخائر والمؤن ــ ويذكي العيون ويقيم الاحراس ، ولا ينزل بلداً ، ولا يعسكر في مكان .. إلا وعسكره على تعبيتهم ومصافهم ، وقواده على راياتهم ، والموكلون بالحرب على ابواب الخنادق وافواه الطرق .

وكان الخوارج اذا أرادوا أن يبيتوه أو يهاجموه ليلاً، وجدوا أمره محكماً ، فلم يقاتلهم انسان قط كان أشد عليهم ولا أغيظ لقلوبهم منه، كادهم بالحيل ، ومزق جموعهم بالحرب ، وكان يساعده في وقائعه بنوه الابطال ..وكلهم على غراره بأساً وقوة وجرأة..

ولبث المهلب يقاتل الخوارج هو وبنوه زهاء اثنتي عشرة سنة حتى شتت شملهم وأفنى جموعهم وقضى على اكثرهم ..

ولم يكن الخوارج أقل منه كيداً ، ولكنهم كانوا من الضعف في عددهم بحيث كان يصعب عليهم تأمين ما يفقدونه من سلاح ورجال دائما وأبداً ، ولكنهم كانوا يعوّضون عن هذا كله بقوة معنوية جارفة واستبسال حتى الموت ، وصبر في الحرب ما كان ليطيقه إلا من كان يريد الآخرة مثلهم ، فلا تعجب بعد هذا إذا رأيتهم دائماً يقلون عدداً إذا قيسوا بعدوهم ، ولكنهم كانوا يزيدونه اضعافاً مضاعفة قوة معنوية ، وجرأة وحرباً في ساحة الوغى وبين الملاحم ..

وكان المهلب يعرف مواطن الضعف في رجاله وخصومه ، وما كان مثله ليطلب من رجاله ان يحاربوا حتى الموت ، ولا كان همه إفناء جنده ، وقتل صناديدهم ، ولذلك كان يماكر الخوارج ويداريهم ، فاذا نهضوا اليه نهض اليهم، واذا أرتدوا عنه اتبعهم ، واذا هادنوه هادنهم ، عاملاً على اضعافهم ، محاولاً ما كان الى ذلك سبيل اخراجهم من المواطن الخصبة الى حيث لا يجدون سلاحاً ولا طعاماً ..

الاعمال العسكرية الاولى

ولما تولى المهلب أمر الخوارج ، انتخب من أهل البصرة اثني عشر الفاً من جميع الناس ، وفتح بيت المال فلم يجد فيه غير مائتي الف درهم ، ولم يكن هذا المبلغ مما يكفي المهلب وجنـــده فبعث الى التجار فقال لهم :

ـــ ان تجارتكم قد فسدت منذ عام بانقطاع الاهواز وفارس عنكم .. فهلموا فبايعوني واخرجوا معي أوفكم حقوقكم .

فساعده التجار بالمال ، فمكنه هذا من تأمين سلاحه ، وقطـــع الجسر في البصرة بعد ان قدّم ابنه المغيرة ، فحاربه الخوارج فـــلم يوفقوا الى منعه ، فارتدوا عنه وعن البصرة وعلى رأسهم الزبير بن علي قائد الماحوز خليفتهم ، ولم يتتبع المهلب المنهزمين منهم ، وفضل تثبيت أمره ، وتوطيد مركزه ، وتقوية سلاحه قبل الاقدام عـــلى معركة جديدة وكان هذا من حسن السياسة والدراية ..

وأقام المهلب أربعين يوماً يجبي الخراج بكور دجلة، والخوارج على مقربة منه حتى صار عنده مبلغ عظيم من المال ، فقضى التجار وأعطاهم مالهم ، فأسرع اليه الناس رغبة في مجاهدة العـــدو ، وطمعاً بالغنائم ، وأملاً بالنصر والتجارة ..

ثم قام المهلب الى (نهر تيرى) بناحية الاهواز فأجلى الخوارج عنه ، وأقام ينظم شؤون الارض التي صار استردادها من الخوارج ، ويجبي الخراج ، وكتب بالنصر الى أمير البصرة من قبل ابن الزبير..

ودسّ المهلب في هذه الاثناء عيونه في معسكر الخوارج ، فأتوه

بأخبارهم كاملة غير منقوصة ، فاذا اكثرهم من رعاع الناس ، ما بين قصاب وصباغ وحداد ، فخطب الناس فذكرهم من هناك من العدو ، وقال لهم:

ـ أمثل هؤلاء يغلبونكم على فيئكم ؟

ولم يزل المهلب مقيماً في مكانه حتى أحكم أمره ، وكثر اصحابه وفرسانه ، وأصبح رجاله يقاربون العشرين ألفاً ، فمضى يؤم سوق الأهواز وعلى مقدمته المغيرة ابنه حتى قارب الخوارج ، فناوشوه فانكشف عنه بعض أنصاره ، وثبت المغيرة بنفسه بقية يومه وليلته يوقد النيران ، ويستعد لمعركة الغد ، فلما أصبح وجد الخوارج قد ارتحلوا ، فدخل المغيرة سوق الأهواز ، ووصل المهلب ومعه سواد الجيش ، وكتب بالنصر الى امير البصرة .

وكان المهلب يبث الأحراس (الحرس) حين لا تكون حرب ، كما يبثهم في الحرب ، ويذكي عيونه في الأمصار كما يذكيها في الصحارى ، ويأمر اصحابه بالتحرز حتى لا يهاجمهم الخوارج بغتة وهم غافلون ، ويقول لهم : « احذروا ان تُكادوا كما تكيدون ، ولا تقولوا هزمناهم وغلبناهم والقوم خائفون وجلون.. فان الضرورة تفتح الحيلة ... »

وفي هذه الأثناء ارسل ابن الماحوز بعض رجاله الى نهر تيري حيث كان عم المهلب فقتلوه وصلبوه ، فوجّه المهلب ابنه اليهم فوجدهم قد ارتحلوا ، فدفن عمه ، وسكّن الناس ، ورجع الى ابيه بسولاف والخوارج بها ، وبدأت المعركة بالمبارزة الفردية كما هي العادة عند العرب ، ثم مال الخوارج بأجمعهم على معسكر المهلب

فانهزم الناس ، وقتل منهم سبعون رجلا ، وثبت المهلب مكانه ومعه ابنه المغيرة ، وأخذ يعمل على رد المنهزمين حتى رجع منهم اربعة آلاف فقال المهلب :

ـ والله ما بكم من قلة .. وما ذهب عنكم إلا اهل الجبن والضعف والطمع ، فان يمسسكم قرح ، فقد مسّ القوم قرح مثله ، فسيروا الى عدوكم على بركة الله ..

فنصحه اصحابه ان لا يقاتلهم إلا بعد ان تلتئم جراح الناس ، ففعل وصار الى (العاقول) بعد ان عبر نهر دجيل ،وكان لا يؤتى إلا من جهة واحدة ، فأقام الناس ثلاثاً مستريحين ، ثم ارتحل والخوارج قدامه فنزل قريباً منهم ، وخندق عليه ، ووضع المسالح وأذكى العيون والحرس ، والناس على راياتهم ومواقفهم ، وأبواب الخنادق محفوظة ، فكان الخوارج اذا أرادوا مهاجمته وجدوه يقظاً فلم يقاتلوا انساناً قط كان أشد عليهم منه ..

معركة حاسمة

وأصبح المهلب في تعبئة ، وفعل الخوارج مثل ذلك ، وكانوا اكثر سلاحاً من أهل البصرة وأكرم خيلا ، لأنهم لم يتركوا شيئاً صالحاً من آلة الحرب إلا أخذوه من الارض التي مروا بها ، ودار القتال ، ثم قام الخوارج بهجومهم الشديد الذي تعوّدوه ، فارتد رجال المهلب ، وثبت المهلب وابنه المغيرة ، وأسرع المهلب حتى سبق المنهزمين الى مكان مرتفع ثم نادى :

ـ إليّ عباد الله .

فاجتمع اليه ثلاثة آلاف أكثرهم من قومه الازد ، فحثهم على القتال ووعدهم بالنصر ، وأمرهم ان يأخذ كل رجل منهم عشرة احجار ، يضربون بها الخوارج فوساناً ورجالة ، وطال القتال الى المساء ، فقتل عبيد الله ابن الماحوز زعيم الخوارج وارتحل الخوارج الى ارجان ...

وعندئذ امر المهلب اصحابه بالحذر من البيات ، وكتب الى امير البصرة بالنصر وهو القباع فكتب اليه هذا يقول :

« قد قرأت كتابك يا أخا الازد ، فرأيتك وهب الله لك شرف الدنيا وعزها ، وذخر لك ثواب الآخرة ان شاءالله وأجرها ، ورأيتك أوثق حصون المسلمين ، وهد اركان المشركين .. وأخا السياسة وذا الرئاسة .. »

وكتب اليه اهل البصرة يهنئونه ، وبعث اليه الأحنف رسالة يقول فيها : « انا لك على ما فارقتك عليه » .

الخوارج بعد المعركة

وكان مقتل عبيد الله بن الماحوز[1] زعيم الخوارج في شوال سنة ٦٦ للهجرة ، وكان أمره ستة عشر شهراً ، وبايع الخوارج بعده الزبير بن علي الماحوز وجزعوا لمقتل زعيمهم ، وشكوا في انتصارهم وظهر الانكسار والضعف فيهم فشدد الزبير قلوبهم وقال لهم :

ــ لقد أصابوا منكم وأصبتم منهم ، وقد أشجيتم المهلب وقتلتم

(١) ابن الاثير .. واما ابن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة فيسميه الماخور والأول الأصح عندنا .

اخاه ».. وتحمل لمحاربة المهلب فردّه ، فأ كمن له فلم يوفق ، فيئس من ناحيته وذهب الى اصبهان، ثم كرّ راجعاً الى ارجان وقد جمع جموعاً كثيرة،وكان المهلب قد استعد لهم ، وكأنه كان ينتظرهم فلما جاؤوه ألفوه مستعداً آخذاً بأفواه الطرق ، فحاربوه فظهر عليهم ظهوراً عظيماً ...

مغادرة المهلب الخوارج

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج في ولاية البقـــاع ، حتى عزله عبدالله بن الزبير سنة ٦٧ للهجرة ، وولى مصعب بن الزبير مكانه ، فكتب الى المهلب ان يقدم عليه ففعل ، واستخلف ابنـــه المغيرة مكانه وقال لأصحابه :

« انـكم لا تفقدوني ما كان المغيرة عليكم ، فانه أبو صغيركم في الشفقة ، وابن كبيركم في البر والطاعة ، فلتحسن طاعتـكم له، وليلن له جانبكم ، فما أردت صواباً قط إلا سبقني اليه .. »

وأقبل المهلب الى العراق فشهد حرب المختار ، ثم ولاه مصعب على الموصل والجزيرة وأرمينية وأذربيجان ، فمضى المهلب اليهـــا، وسار مصعب الى البصرة يبحث عن شخص يوليه حرب الخوارج ، فوقع اختياره على عمر بن عبيد بن معمر ، وكان كما يقول الخوارج فيه :

« بطلاً شجاعاً فارساً جاداً يقاتل لدينه وملكه ،ما نودي لحرب إلا كان اول فارس يطلع » .

وكان قطري بن الفجاءة احد زعماء الخوارج يقول في المهلب :

ـــ هو من قد عرفتموه ـــ اذا أخذتم بطرف ثوب أخذ بطرفه الآخر ، يمده اذا ارسلتموه ، ويرسله اذا مددتموه ، لا يبدأكم الا ان تبدأوه،وإلا ان يرى فرصة ينتهزها فهو الليث المبرز، والثعلب الرواغ ، والبلاء المقيم ...

ومشى عمر بن عبيد الى الخوارج وهم بارجان ، وعليهم الزبير ابن علي بن الماحوز فقاتلهم وألح عليهم حتى أخرجهم منها فألحقهم باصبهان ...

ولما علم المهلب بتولية مصعب بن الزبير عمر بن عبيد قال :

ـــ رماهم بفارس العرب وفتاها ...

وجمع الخوارج لعمر واستعدوا له ،وأتوا سابور ـــ وهي كورة مشهورة بارض فارس ـــ فسار اليهم ، وحاولوا مهاجمته ليلاً ، فلم يوفقوا وظهر عليهم ، ثم زحف على الخوارج في الغد وقاتلهم قتالاً شديداً ، وهلك ابنه في اثناء المعركة ، فلما عرف بذلك حمل على الخوارج حملة لم يُرَ مثلها ، وحمل اصحابه بحملته ،فقتلوا في وجوههم تسعين من الخوارج ، وحمل على (قطري) زعيمهم فضربه على جبينه ففلقه وانهزمت الخوارج ، وخرجوا من فارس ، ولكنهم ما لبثوا ان عادوا الى ناحية ارجان ، فسار اليهم عمر بن عبيدالله ، وكتب الى مصعب بالنصر وانهم عادوا ، فهو ذاهب اليهم ، واخبره بمقتل ابنه ، ولما التقى عمر بالخوارج ألحّ عليهم حتى اخرجهم وشردهم ، وانفرد في هذه الوقعة عن اصحابه فعمد الى اربعة عشر رجلاً من شجعانهم وفي يده عمود ، فجعل لا يضرب رجلاً منهم ضربة الاصرعه ،

وارتحل الخوارج الى اصفهان ، فأقاموا برهة ثم رجعوا الى الأهواز ، وكان عمر بن عبيدالله قد ذهب الى اصطخر ..

ثم عُزل مصعب عن العراق ، وولى عبدالله بن الزبير ابنه حمزة مكانه ، فمكث قليلاً ثم أُعيد مصعب الى العراق ، والخوارج باطراف اصبهان ، يجبون الفيء من القرى ، ثم أقبلوا الى الاهواز من ناحية فارس ، فكتب مصعب الى عمر ينهضه لحربهم ، وخرج مصعب من البصرة يريدهم ، وأقبل عمر يريدهم ، فتنحى الخوارج ، وأتوا الى المدائن وبسطوا في القتل سيوفهم ، فجعلوا يقتلون النساء والصبيان ، ثم خرجوا يريدون الكوفة ، فلما خالطوا سوادها تثاقل القباع واليها عن الخروج اليهم ، فلامه الناس فخرج متثاقلاً متحاملاً يحرك رجلاً ويقدم أخرى ، وكان الخوارج في أثناء ذلك يقتلون الرجال والنساء ، ثم عادوا الى أصبهان لا يمرون بقرية بين أصبهـــان والأهواز الا استباحوها ، وقتلوا من فيها ، وشاور مصعب الناس في أمرهم ، فأجمع رأيهم على المهلب ، فسيره اليهم . خصوصاً وان أهل البصرة رفضوا الخروج للحرب ، ان لم يكن المهلب في حرب الخوارج يحمي نساءهم وبلدهم ...

وفي هذه الاثناء انحط الخوارج على أصفهان ، وحاصروا بهـــا عتاب بن ورقاء سبعة أشهر ، فلما طال به الحصار قرر الخروج في جماعة اليهم ، فذلك أحسن من الموت جوعاً حتى تنفد الذخائر والمؤن ، فخرج اليهم في الفين وسبعمائة ، فلم يشعر بهم الخوارج حتى غشوهم فقاتلوهم بجلد لم تر الخوارج مثله ، وقتل الزبير بن علي الماحوز زعيمهم وانهزموا لا يلوون على شيء .

زعامة قطري

ولما قتل(الزبير بن علي)ولى الخوارج أمرهم(قطري بن الفجاءة) وهو من شجعانهم وشعرائهم وقالوا له :

ـ يا امير المؤمنين إمض بنا الى فارس ..

فقال : ان بفارس عمر بن عبيد الله بن معمر ، ولكن نصير الى الأهواز ، فان خرج مصعب من البصرة دخلناها ..

وكان مصعب لما صمم على الخروج لقتال عبد الملك قال لأصحابه:

ـ ان قطرياً يطل علينا ، وان خرجنا من البصرة دخلها ..

وبعث الى المهلب فقال له :

ـ أكفنا هذا العدو ...

وكذلك عاد المهلب لقتال الخوارج ..

- ٥ -

النار والحرب

الحرب الشاردة

كانت المعارك التي تدور بين المسلمين والخوارج أشبه بالثورات المحلية ، ان ظفرت الدولة بهم في ناحية من أمصار الدولة ، ظهروا في ناحية أخرى ، وان قضت على زعيم من زعمائهم قام مكانه زعيم جديد ، وان اثخنت في جماعة منهم ارتدوا إلى مكان آخر ، ثم كروا عليها يحاربونها في الوقت الذي يشاؤون ويريدون ..

ولولا شدة الخوارج وتمردهم على كثير مـــن الاحكام والنظم الاجتماعية الاسلامية ، من حيث استباحـــة القرى الآمنة ، وقتل الاطفال والنساء الابرياء ، لـكانت ثوراتهم هذه تجري على سنن من الهوادة واللطف والانسانية والفضائل الاجتماعية ، لا يتنكر لهـــا المؤرخ ، ولا يغضب لها الباحث النـــاقد ... حتى اذا طواهم الدهر ذهبوا في التاريخ ، كأصحاب مذهب سياسي قد يكون فيه

بعض الخير ، وقد يكون فشلهم في إقراره مدعاة الى تقدير تضحيتهم في سبيله ..

ولكنهم كانوا جماعة لا يقيمون للدماء العربية وزناً، وكان شأنهم الهدم دون الاعمار ، والسفك دون ما رادع ولا وازع ولا سبب موجب، وليس هذا من الحرب في شيء ، وليس هذا من الاخلاق العسكرية في كثير ولا قليل ..

وكان مما يزيد هذه الثورات الخارجية شدة ، ويساعد على تغذيتها ويمدها بالحياة يوماً بعد يوم ، وعاماً بعد آخر ، ان الخوارج حين كانوا يخسرون معركة في مكان ما ، او يجدون عدوهم أقوى مما يطيقون ويظنون ، يغادرون المعركة الى مكان آخر ، من أمصار الامبراطورية العربية ، فلا يكون في هذا المصر الذي لجأوا اليه قوة عسكرية تستطيع مقاومتهم او ردهم عن دخول المصر ، فيظل الخوارج يتمونون ، ويستريحون ، ناعمين بالراحة والطمأنينة حتى تأتي قوة من عاصمة المصر تخرجهم من الارض التي نزلوها بعد المعركة ، ولا تصل هذه القوة اليهم إلا وقد ضمدوا جراحهم،وأراحوا دوابهم، وشحذوا سلاحهم ، ونظموا صفوفهم ، فلا تجد القوة المقبلة أمامها جماعة منهزمة ، وانما تجد قوة عسكرية مستعدة للحرب والعراك ..

حرب الادب والشعر

فلما عاد المهلب الى حرب الخوارج سنة ٦٨ للهجرة ، وذهب مصعب لقتال عبد الملك بن مروان ، وعلم قطري بقدوم المهلب عليه ،يمم نحو (كرمان) ، فأقام المهلب بالأهواز بعد ان انتخب

من شاء من أهل البصرة ، وسار بهم الى الخوارج ، وكان الاجتماع في سولاف ، فاقتتلوا ثمانية أشهر أشد قتال رآه الناس ..

وفي هذه الاثناء ، وفي هذه الفترات التي تتوقف فيها المعارك ، ويتهادن فيها الجيشان ، كان يحدث بين أفراد الجيشين من الحوادث اللطيفة ، والنكت المستملحة ما يستحق ان يذكر ويحفظ ..

فقد رووا مثلاً :ان رجلين تنازعـــا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق أيهما أشعر من صاحبه ، فذهبوا الى المهلب فسألوه فقال :

ـــ لا أقول فيهما شيئاً ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما ، عبيدة بن هلال ، وهو في معسكر قطري..

فأتيا فوقفا حيال المعسكر فدعواه ، فخرج يجر رمحه وظن انه دعي الى المبارزة فقالا له :

ـــ الفرزدق أشعر أم جرير ؟

فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ...

فقالا : نحب ان تخبرنا ، ثم ننصرف الى ما تريد ...

فقال : من يقول

وطوى القياد مع الطراد بطونها   طي التجار بحضرموت برودا

قالا : جرير

قال : هو أشعرهما ...

*

ولما أتى الخوارج مقتل مصعب بن الزبير ،وكان المهلب واصحابه يجهلون الخبر ، ناداهم الخوارج :

ـــ ما تقولون في مصعب ؟

قالوا : إمام هدى .

فقال الخوارج : ما تقولون في عبد الملك ؟

قالوا : ضال مضل ..

فلما كان بعد يومين أتى المهلب قتل مصعب ، وان أهل العراق قد اجتمعوا على عبد الملك ، وورد كتاب عبد الملك بولايته ، فلما تواقف الجيشان ناداهم الخوارج :

ـ ما تقولون في المصعب .. ؟

قالوا : لا نخبركم .

قالوا : فما تقولون في عبد الملك .. ؟

فقال اصحاب المهلب : إمام هدى ..

فقال الخوارج : يا اعداء الله ، بالأمس ضال مضل ، واليوم إمام هدى ، يا عبيد الدنيا عليكم لعنة الله ..

*

وروى ابو الفرج في كتاب الاغاني : كان الخوارج والمسلمون في حرب المهلب وقطري يتواقفون ويتساءلون بينهم عن امر الدين وغير ذلك على امان وسكون لا يهيج بعضهم بعضاً ...

*

وروى صاحب الاغاني : ان عبيدة بن هلال الخارجي كان اذا تهادن الناس ناداهم ـ اي جماعة المهلب ـ « ليخرج إليّ بعضكم » ، فيخرج اليه فتيان من العسكر فيقول لهم :

ـ أيما أحب اليكم اقرأ عليكم القرآن ام انشدكم الشعر ؟

فيقولون له : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ، ولكن تنشدنا ..

فيقول : يا فسقة.. قد والله علمت انكم تختارون الشعر على القرآن ..

ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا .. ويفترقوا ..

المهلب يترك حرب الخوارج

ومن المفروض ان المعارك التي دارت بسولاف بين المهلب وجماعة الخوارج بزعامة قطري لم تكن حاسمة ، فلما ظفر عبد الملك بن مروان بمصعب بن الزبير، وبسط سلطانه على العراق، ولى على البصرة خالد بن عبدالله بن اسيد ، وكان المهلب يحارب الازارقة ، فجعله على خراج الاهواز ، وسيّر أخاه عبد العزيز بن عبدالله الى قتال الخوارج ، فارسل قطري اليه تسعماية فارس ، فاستقبلوا عبد العزيز وهو يسير على غير تعبية فانهزم الناس ، وهرب عبد العزيز وأخذت امرأته اسيرة .. فلما علم عبد الملك بن مروان بالخبر ، غضب غضباً شديداً وندّد بواليه لتركه المهلب ، وأمره ان لا يخرج عن رأيه وان يخرج الى حرب الخوارج بنفسه ، وكتب الى بشر بن مروان شقيقه ، وهو عامله على الكوفة أن يمده بجيش من عنده ، فأمده ببضعة آلاف عليهم عبد الرحمن بن الاشعث ..

ويختلف الرواة فيما حدث بعد هذا فيقول ابن ابي الحديد في رواية تختلف عما تقدم : انه لما خرج خالد لقتال الازارقة ومعه المهلب ، نصحه المهلب ان يخندق على نفسه فلم يفعل ، فخندق

المهلب على نفسه ، وبث عيونه خوفاً من هجوم الخوارج عليه ليلاً ، كما نصحه ان يفرغ سفنه مخافة ان يعمل الخوارج على احراقها ، فلم يفعل ايضاً ، فافرغ المهلب سفنه ،وجاءت الخوارج فأحرقت السفن وأقام قطري يحاربهم اربعين يوماً ، ويقول ابن الاثير عشرين يوماً، أو أقل على رواية ثالثة ، وتمكن الخوارج من جند خالد ، ولم يتمكنوا من المهلب ، فعاد خالد الى رأي المهلب وخندق على نفسه ولما رأى الخوارج اهل الكوفة والبصرة يخندقون صاحوا بهم :

ــ لولا هذا الساحر لكان الله قد دمر عليكم ..

وكان الخوارج يسمون المهلب الساحر ، لانهم كانوا يريدون الامر . فيجدون المهلب قد سبق الى نقض تدبيرهم ..

وليس هناك من اخبار الخوارج في هذه الفترة ما يستحق الذكر حتى قيام الحجاج على العراق ، واهتمامه بمحاربة الخوارج حربا لا هوادة بها ولا رحمة ..

ومما يستثير الاهتمام فيما تصفحناه من اخبار المهلب ، هذا الاختلاف الذي كانت تظهر بوادره وأماراته بينه وبين ولاة الامور في البصرة ، ورغبة بعضهم في تحويل حرب الخوارج عنه الى غيره .

ومن المؤكد ان لهذا الاختلاف أسبابا منها ان المهلب كان من الازد أهل اليمن ، وولاة الامور كانوا في أكثر الاحيان من المضرية ــ اهل الشمال ــ وهؤلاء كان يهمهم تقديم أحد بني عصبيتهم على المهلب ..

ومنها ان الخوارج كانوا أشد خصوم الدولة ، ومن يستطيع

اخضاعهم كان يستطيع بحق ان يسمي نفسه منقذ الدولة ، ألا ترى كيف ان أهل البصرة اسموا بلدتهم (بصرة المهلب) لما وفق الى رد الخوارج عنها .. ولم يكن من مصلحة المضريين ان يذهب بفخر هذه الانتصارات العظيمة قائد غريب عنهم ..

ثم ان المهلب نفسه كان يعلم حاجة القوم اليه ، وانه لا يطيق حرب الخوارج غيره ، فكان يشترط من الشروط اثقلها ، ويطلب من الامتيازات اعلاها واغلاها ، وقد سبق لنا ان ذكرنا كيف طلب ان يكون له فيء ما يدخله من البلاد اول مـــا سألوه حرب الخوارج ، ثم لما انكر عليه الاحنف بن قيس ذلك رضي ان يأخذ من الفيء ما يقوم بأود رجاله وسلاحه وان يترك الباقي للمسلمين ..

ويذكر المؤرخون انه لما عزم عبد الملك بن مروان على اخيه بشر بن مروان ان يولي المهلب حرب الخوارج ، وكان هذا يتردد في توليته ويدعي انه عليل ، وجه اليه بشر ليأتيه فقال المهلب :

ــ أنا عليل ولا يمكنني الاختلاف ... ــ يريد انه لا يستطيع الحركة والذهاب الى دار الامارة ــ .

فوجه (بشر) اليه الدواوين يختار منها من يشاء من الرجال لحرب الخوارج ..

ولما انتهى المهلب من اختيار رجاله للحرب ، واتاه عبد الرحمن ابن مخنف في ثمانية آلاف من اهل الكوفـــة ، خرج المهلب الى الازارقة في جيشه ، فلمـــا علموا بدنوه انكشفوا عن الفرات ، فاتبعهـــم المهلب الى سوق الاهواز ، فتركـــوها ، وساروا الى (رامهرمز) فهزمهم فيها ، فدخلوا فارس ، فوجه اليهم المغيرة ابنه

وكان بطلا شجاعا ، ومات بشر بن مروان امير العراق في هذه الاثناء، فاخذ الجند يتسللون الى بلادهم ، ولحق بالكوفة عدد كبير منهم ، واراد اهل البصرة ممن كان في جند المهلب ان يحذوا حذوهم فنصحهم المهلب ان لا يفعلوا ، فسمع مقاله بعضهم ، وذهب البعض الآخر ، وظل هذا شأن الجند حتى ولي الحجـــاج العراق فأخذهم بالشدة ، وردهم الى الحرب بالسيف ، وكان ذلك في سنة ٧٥ للهجرة ...

الحجاج والخوارج

وبتولي الحجاج امارة العـــراق.. انقلب الامر في حـرب الخوارج من حال الى حال ، فبعد ان كان القواد لا يحصلون على الجند إلا بشق النفس ، اخذ الحجاج الناس بالشدة ، وارسلهم الى السيف بالسيف ...

وسأل الحجاج يوماً وجوه القوم في العراق :

ــ ما كانت الولاة تفعل بالعصاة ؟

فقالوا : كانت تضرب وتحبس .

فقال : ولكن ليس لهم عندي إلا السيف ، ان المسلمين لو لم يغزو المشركين لغزاهم المشركون ، ولو ساغت المعصية لاهلها ما قوتل عدو ، ولا جبي فيء ولا عزّ دين ...

فنفرت الناس الى جيش المهلب ، وابتدأت المعارك بينه وبين الخوارج شديدة قاسية ، كالحة دامية ...

الحجاج والمهلب

وكان الحجاج اثناء المعارك يرسل له الرسل اثر الرسل ، يستحثه

على القتال ، ويبعث اليه الكتاب بعد الكتاب يثير حميته ونشاطه ، فكان المهلب يوزع الرسل في مختلف المراكز العسكرية ليشاهدوا قتال الخوارج ، فكان بعض الرسل يقتلون ، وبعضهم يهربون من هول الحرب ، وكانت أجوبته على كتب الحجاج :

ـ سل رسلك يخبروك كيف نقاتل الخوارج ويقاتلوننا .

وكان الرسل يرجعون الى الحجاج ويقولون له :

ـ « رأينا قوماً لا يعين عليهم إلا الله » .

واغلظ الحجاج يوما للمهلب فكتب له :

« بلغني انك قد اقبلت على جباية الخراج ، وتركت قتال العدو ، واني وليتك وانا أرى مكان فلان وفلان ، واخترتك من اهل عمان ، ثم انك رجل من الازد ، فالقهم في يوم كذا في مكان كذا.. وإلا أشرعت اليك صدر الرمح » .

فشاور المهلب بنيه فنصحوه ان لا يغلظ في الجواب ... فكتب اليه :

« ورد اليّ كتابك تزعم اني أقبلت على جباية الخراج وتركت قتال العدو ، ومن عجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعجز ، وزعمت انك وليتني وانت ترى مكان فلان وفلان ، ولو وليتهما لكانا مستحقين لذلك لفضلهما وعنايتهما وبطشهما ، وزعمت انك اخترتني وانا رجل من الأزد ، ولعمري ان شراً من الأزد لقبيلةٌ تنازعتها ثلاث قبائل تستقر في واحدة منهنّ ، وزعمت اني إن لم ألقهم يوم كذا في مكان كذا ، اشرعت اليّ صدر الرمح ، ولو فعلت

لقلبت لك ظهر المجن والسلام » .

ونعتقد ان الحجاج قد اخطأ خطأ فادحاً في اقحام نفسه في امور عسكرية ليس من شأنه ان يبحثها ، فان دعوته قائده لمهاجمة العدو في يوم كذا ، ومكان كذا ؛ وهو بعيد عن المعركة ، غريب عن الموقف العسكري ،امر يدل على قصر النظر، وليس يصحان يصدر عن الحجاج .. وان كان الغرض من هذا الكتاب على ما نعتقد حث المهلب على الحرب ليس إلا...

*

ووجه اليه الحجاج مرة أخرى الجراح بن عبدالله يستبطئه في مناجزة العدو ، وكتب اليه :

« أما بعد فانك جبيت الخراج بالعلل ، وتحصنت بالخنادق ، وطاولت القوم ، وأنت أعزّ ناصراً ، وأكثر عدداً ،ولا أظن فيك مع هذا معصية ولا جبناً ، ولكنك اتخذت أكلًا ، وكان بقاؤهم أيسر عندك من قتالهم .. فاجزم وإلا انكرتني والسلام » .

فقال المهلب للجراح :

ـ يا ابا عقبة والله ما تركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا عملتها ، وما العجب من ابطاء النصر وتراخي الظفر ، ولكن العجب أن يكون الرأي لمن يملكه دون من يبصره ..

ثم ناهض الخوارج يغاديهم القتال الى الرواح ،أمام عين الرسول فينصرف أصحابه وبهم قروح ومنهم قتلى ..

فقال للرسول : كيف رأيت ..؟

قال الرسول : قد أعذرت .

وكتب المهلب الى الحجاج :

« أتاني كتابك تستبطئني في لقاء القوم ، على انك لا تظن بي معصية ولا جبناً ، وعاتبتني معاتبة الجبان ، واوعدتني وعيد العاصي ، فاسأل الجراح والسلام » .

فقال الحجاج للجراح : كيف رأيت أخاك ؟

قال : والله ما رأيت أيها الأمير مثله قط ، ولا ظننت ان أحداً يبقى على مثل ما هو عليه ، شهدت أصحابه أياماً ثلاثة يغدون الى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، يتطاعنون بالرماح ، ويتضاربون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئاً..

فقال الحجاج : لشد ما مدحته أبا عقبة ..

قال : الحق أولى ..

— ٦ —

شبيب الخارجي

ظهور شبيب

كان المهلب اكثر قواد العراق حظاً مع الخوارج ، وأبعدهم تمزيقاً فيهم ، وكيداً لهم ، وكان من أمره معهم ما وصفناه في الفصول السابقة ، وكيف كان يطاول الخوارج ويصاولهم مع كثرة ما كان الحجاج يستحثه على قتالهم ، ذلك ان المهلب كان يعلم يقيناً انه ليس بناجح مع هذه الجماعة وهم الأبطال الشجعان الذين يحاربون حتى الموت ، إلا اذا اخذهم بالحيلة ، وطاولهم بالمكر ، وحاربهم بالمراوغة..

وفي هذه الاثناء ظهر شبيب الخارجي وجماعته ، فأصبح الحجاج امام عدوين ، قطري واصحابه وقد وقف المهلب إزاءهم ، وشبيب وانصاره ، وهؤلاء ان تركهم وشأنهم حتى يفرغ من قطري عاثوا في الارض فساداً ، وأثخنوا في الناس ، فكان لا بد من ارسال البعوث اليهم تردهم عما نزلوه من ارض الجزيرة ، واستولوا عليه من

قرى الامبراطورية .

وكان أول ظهور شبيب وجماعته ، انه تحرك في سنة ٧٥ للهجرة للخروج الى الثورة، رجل من بني امريء القيس يقال له (صالح بن مسرح ـ وكان يرى رأي الصفرية ـ وقيل انه اول من خرج منهم ، فحجّ في هذه السنة ، ومعه (ابو الضحاك شبيب بن يزيد) ، و (مديد) و (البطين) وأشباههم من الخوارج ، وكان عبد الملك ابن مروان حجّ في هذا العام ، فهمّ شبيب بالفتك به فلم يوفق ، وكان صالح المذكور ناسكاً خاشعاً مصفر الوجه ، صاحب عبادة ، وكان يقيم بأرض الموصل ، وله اصحاب يقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين، ويتبرأ من عثمان وعلي بن ابي طالب ومن ولاة الأمر بعدهما، ويدعو أصحابه للخروج من دار الفناء الى دار البقاء واللحاق باخوانهم المؤمنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وجاهدوا بمالهم وأنفسهم التماساً لرضوان الله ، ورغب الى أصحابه ان يرسلوا كل من كان على رأيهم للخروج على الولاة ، وبينما هو في ذلك اذ قدم على صالح شخص بكتاب من أبي الضحاك شبيب بن يزيد الخارجي، يعرض عليه فيه الانضمام الى صالح وأصحابه ، وان يكون صالح أمير المؤمنين وشيخ المسلمين ، فاستجاب له صالح ،وكتب اليه يحثه على الاسراع بالاقبال اليه ، فجمع شبيب أصحابه وقدم على صالح وتواعد الجميع الخروج في صفر سنة ٧٦ .

خروج الخوارج

ولما اجتمعوا وهموا بالخروج .. رأى شبيب بن يزيد استعراض

الناس وقتل كل من يعرض لهم ممن لا يرى رأيهم ، فمنعه صالح وقال له :

ـ بل ندعوهم فان من يرى رأينا مجيبنا ،ومن لم ير رأينا فنحن في حل من قتله .

ولما ابتدأوا في الخروج كانوا نحواً من مائة وعشرين معظمهم رجّالة ، وكان لمحمد بن مروان دواب في رستاق بتلك الجهة فشدوا عليها وأخذوها فحملوا رجالتهم عليها، وبلغ محمدبن مرون خروجهم، وهو يومئذ امير الجزيرة ، فاستخف بامرهم وأرسل اليهم عدي بن عميرة في الف ، فهزمهم الخوارج فرجعوا الى محمد بن مروان فغضب وأرسل الى الخوارج قائدين من قواده في ثلاثة آلاف ،فخرجا اليهم واقتتل الفريقان أشد قتال ، فترجل خالد والحارث ومن معهما واستقبلوا الخوارج ، ورشقتهم رماتهم بالنبل ، وطاردتهم خيلهم ، وفشت الجراحة في الجيشين ،وكثرت فيها القتلى ، فلما امسوا رجعوا الى عسكرهم ، وتشاور الخوارج فيما بينهم ، فقر رأيهم على ان يخرجوا من تحت ليلتهم سائرين ، فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة ودخلوا في أرض الموصل ، فلما بلغ الحجاج ذلك سرح اليهم الحارث بن عميرة في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة .. الف من المقاتلة الاولى ، والفين من غيرهم ،فلحقوهم علىحدود أرض الموصلواقتتلوا، فقتل صالح وثبت شبيب مع جماعة ، وجاء حتى انتهى الى موقف صالح فوجده قتيلا ، فأمر العسكر بان يجعل كل رجل منهم ظهره الى ظهر صاحبه ويطاعنوا عدوهم الى ان يدخلوا حصناً هناك ، ففعلوا ودخلوا الحصن ، وأحاط بهم الحارث ممسياً ، فجمع شبيب أصحابه

وطلب منهم ان يبايعوا من ارادوا بعد صالح ، ويخرج بهم ليلاً ليشدوا على الحارث وعسكره، فبايعوه هو ، وخرج بهم فلم يشعر الحارث ولا اهل عسكره إلا وشبيب وأصحابه يضربونهم بالسيوف، فحارب الحارث حتى صُرع ، واحتمله اصحابه وانهزموا ومضوا حتى نزلوا المدائن ، فكان ذلك الجيش اول جيش هزمه شبيب،ثم ارتفع بأصحابه الى ارض الموصل ثم الى أذربيجان ..

انتصارات شبيب

وكان الحجاج قد كتب الى سفيان بن ابي العالية ان ينزل الدسكرة[1] فيمن معه،ويقيم بها حتى يأتيه جيش الحارث بن عميرة الهمداني الذي قتل صالح بن مسرح احد زعماء الخوارج ، ويأتيه جيش آخر عليه سورة بن أبجر التميمي ، ثم يسير بعد ان تجتمع اليه هذه الجيوش الى شبيب ويناجزه ..

فأتاه جيش الحارث ، اما سورة بن أبجر، فانه تخلف عنه مع خمسين رجلاً ، وارسل الى سفيان ان لا يبرح حتى يأتيه ، فتعجل سفيان وارتحل في طلب شبيب فلحقه بخانقين في سفح جبل ، فأكمن له شبيب أخاه ، واستطرد له يريه انه ينهزم،فاتبعه سفيان ــ وكان عدي بن عميرة الشيباني أشار عليه بان يأخذ حذره من الكمين فلم يسمع له ــ حتى اذا توسط بين الكمين وبين شبيب ، رجع اليه شبيب وثار عليه مصاد شقيق شبيب فهُزم هو وجيشه،وصرع سفيان وكاد يقتل ، لولا ان حمله غلام له على فرسه ، وصار يدافع عنه حتى

(١) قرية كبيرة في غرب بغداد .

نجا وقتل الغلام .. وحاول (سورة) محاربة الخوارج كرة ثانية في جماعته من اهل المدائن فلم يوفق وهزمه الخوارج ، ورجع بأصحابه الى المدائن وأتبعهم الخوارج ، فخرج اليهم اهـل المدائن ورموا الخوارج بالنبل والحجارة ، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن ومضى نحو تكريت ، وأرجف الناس في المدائن ان شبيباً قد دنا يريد ان يبيّت اهل المدائن ، فارتحل عامة الجيش الذي كان بهـا فلحقوا بالكوفة ، فلما رأى الحجاج ذلك قال: قبّح الله سورة ضيّع العسكر والجند.. ودعا بعثمان بن سعيد المعروف بالجزل وأرسله الى الخوارج في اربعة آلاف ، فمضى الجزل خلفه وشبيب يستطرد له من قرية الى قرية ، ومن ناحية الى اخرى ، ليفرق عنه اصحابه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية ، وجعل (الجزل) لا يسير إلا على تعبية ولا ينزل إلا خندق على نفسه ، وأراد شبيب ان يبيت الجزل وأصحابه ، فعبى اصحابه ـــ وكانوا مائة وستين ـــ وجعلهم كراديس ، كل كردوس اربعون رجلاً ، وجعل لكل كردوس أميراً ، فبيّتوا عسكر الجزل فوجدوهم محترسين واضعين بكل جهة مسلحة ، فتركوهم ومضوا الى جرجرايا ، وأرسل الحجاج الى الجزل يستحثه عـلى قتالهم ، فخرج في جيشه يجدّون في طلبهم ، وبعث الحجاج سعيد ابن المجالد ليقاتلهم مع الجزل ، وان يطلبهم طلب السبع ، ويحيد عنهم حيدان الضبع ، فلما انتهى سعيد الى (الجزل) عزم على ان يخرج الى الخوارج في الحال ، فأشار عليه الجزل بالتؤدة وإحكام التدبير فلم يسمع له ، فبرىء من رأيه وألقى عليه تبعة تسرعه .. فخرج سعيد الى الخوارج فهزموه وقتلوه وفرّ الباقون من رجـاله حتى

انتهوا الى (الجزل) .. فجمع هـذا كل من معه وقاتلوا الخوارج قتالاً شديداً ، وأبلى الجزل بلاء حسناً ، وما زال يقاتل حتى جرح وحُمل الى المدائن جريحاً ،وانهزم الجيش ورجع الى الكوفةمفلولاً، وكتب (الجزل) الى الحجاج بما جرى من تؤدته وعجلةسعيد،وما تمّ من قتل سعيد وانهزام الجيش ..

ولما قرأ الحجاج كتاب (الجزل) استحسن فعله،وترحّم على سعيد وأرسل الى الجزل طبيباً يداويه من جراحه ، وألفي درهم ينفقهـــا في حاجته .

ثم أقبل شبيب نحو المدائن ، فوجد اهلها متحصنين ولا سبيل اليهم ، فراح الى الكرخ ، وعبر دجلة وأمّن أهل سوق بغداد — وكانوا يخافونه — وخرج سويد بن عبد الرحمن السعدي في اثره من قبل الحجاج ، ولا زال يطارده حتى قطع بيوت الكوفة ، الى الحيرة ، واستمر شبيب في سيره الى الأنبار ثم ارتفع الى اذربيجان، فتركه الحجاج هناك وخرج الى البصرة ، واستخلف على الكوفـة عروة بن المغيرة بن شعبة ، فعلم برغبة الخوارج في مهاجمة الكوفـــة، فكتب الى الحجاج فرجع الى الكوفة من فوره ، فلما كان المساء دخل شبيب الكوفة ، وشدّ حتى ضرب قصر الأمارة بعموده ..

دخول شبيب الى الكوفه

ثم اقتحم الخوارج المسجد الأعظم فقتلوا من كانوا يصلون فيه ، فنادى الحجاج في الناس بالنفير ، وجرّد على الخوارج عدة امراء اجتمعوا بجيوشهم في أسفل الفرات ، فترك شبيب الوجه الذي هو

فيه وأخذ نحو القادسية ..

فوجه اليه الحجاج بزحر بن قيس .. فيما يقرب من ألف وثمانمائة فارس من نقاوة الفرسان ، وأمره باتباع شبيب ومواقعته حيثما يدركه ، فالتقى زحر بشبيب في السيلحين[1] وتقاتل الجيشان فانهزم زحر وأصحابه وجُرح زحر ، ثم أقبل الخوارج على الامراء المذكورين آنفاً ، وهم على نحو اربعة وعشرين فرسخاً من الكوفة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً وقتل بعض الامراء وجرح بعضهم ، ووضع السيف في عساكرهم ، ثم أمر شبيب برفع السيف عنهم ودعوتهم الى بيعته فبايعه بعضهم بالليل ، فلما أصبح الصباح هربوا ، وتفرقوا ...

وبلغ الحجاج ما كان من امره فهاله ، وظن انه يريد المدائن — وهي باب الكوفة — من أخذها فتحت له الكوفة ، فبعث الى عثمان ابن قطن وولاه المدائن ، ليمنعها من الخوارج ،وكتب الى العسكر يتوعدهم بالايقاع بمن يهرب منهم بأشد من ايقاع العدو ، فخرج عبد الرحمن يطلب شبيباً ، فارتفع عنه شبيب الى شهرزور ، ولحقه عبد الرحمن ، وصار شبيب لا يلقاه إلا وجده على تعبية او في خندق فلا يصيب له غرة ولا يعثر منه على علة ، فصار كلما دنا منه يتركه ويمضي حتى عذّب عسكره وأحفى دوابهم ولقوا منه كل بلاء ، الى ان وصل الى قرية على تخوم ارض الموصل فنزل بها ،ونزل عبدالرحمن على مقربة منه ، فأرسل اليه شبيب ان يوادعه في ايام العيد ، فأجابه عبد الرحمن الى ذلك ، فكتب عثمان بن قطن الى الحجاج يخبره بذلك ، فأمره الحجاج بتولي رئاسة الجيش وأرسل مكانه على المدائن مطرف

(١) قرب الحيرة ضاربة في البر قرب القادسية.

ابن المغيرة بن شعبة ، فأتى عثمان الجيش وأراد ان يناجز الخوارج في الحال ، فلم يساعده الجو اذ كانت الرياح شديدة ، وكانت تهب على الجيش ، فأقام يوماً وليلة حتى هدأت الرياح ، ثم عبّى جيشه وزحف به على شبيب ، وزحف شبيب بأصحابه عليه ، وكانوا نحو مائة وثمانين رجلاً ، فهزم الخوارج جنود عثمان ووضعوا السيف فيهم ، ثم رفعوا السيف عنهم ودعوهم الى البيعة لشبيب فبايعه كثير منهم ، ورجع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الى الكوفة ، فاختبأ من الحجاج حتى اخذ منه الأمان ، وكان ذلك في سنة ٧٧ للهجرة .

وبعد ان هزم شبيب جيش عبد الرحمن وقتل عثمان بن قطن ، وكان ذلك في صيف شديد الحر ، أتى (ماهَ بهراذان) ، فصيّف بها ثلاثة اشهر ، وأتاه ناس كثير ممن يطلب الدنيـــا ، ومن كان الحجاج يطالبهم بمال او غيره فلحقوا به ، ولما انفسخ الحر عن شبيب خرج من ماه بهراذان ، في نحو ثمانمائة فأقبل نحو المدائن ، فكتب دهقان بابل الى الحجاج يخبره بذلك ، فقام الحجاج في اهل الكوفة ، يدعوهم الى المدافعة عن بلادهم وعن فيئهم ، وإلا بعث الى اهـــل الشام ليقوموا مقامهم ، فوعده الناس من كل جانب بالقتال والعمل بما يسره .

وكتب الحجاج الى عبد الملك بن مروان ان شبيباً شـــارف المدائن وانه يريد الكوفة ، وقد عجز اهلها عن قتاله في مواطن كثيرة ، ورغب اليه .. ان يبعث اليه جنداً من اهل الشام ، فارسل اليه سفيان بن الابرد في اربعة آلاف ، وحبيب ابن عبد الرحمن الحكمي المذحجي في الفين ، فسار اهل الشام حتى دخلوا الكوفة ، من طريق

مختصر ارشد اليه الحجاج ، وارسل الحجاج الى عتاب بن ورقـــاء ، فجاء اليه عتاب فجعله اميراً على جيش اهل الكوفة، فلم يفعل شيئاً..

وتهيأ شبيب للمسير الى عتاب واهل الشام ، وخاف مطرف ان يبلغ الحجاج ما كان من تماهله مع شبيب فينتقم منه فخرج الى المدائن مع اصحابه ، وسار شبيب مع اصحابه الى عتاب بسوق حكمه، وكانوا نحواً من الف تخلف منهم اربعمائة ، وكان مع عتاب عدد كبير من المقاتلة، ونشب القتال بين الخوارج وجيش عتاب فهُزم جيش عتاب..

وكان عتاب جالساً في قلب الجيش مع زهرة بن حوية لما غشيهم شبيب .

فقال عتاب لزهرة : هذا يوم كثر فيه العدد وقلّ الغناء.

فقال زهرة : ابشر فاني ارجو ان يكون الله قد اهدى الينا الشهادة عند فناء اعمارنا .

فلما دنا منه شبيب وثب في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتـــل قتالاً شديداً حتى قتل ، وقتـــل معه زهرة بن حوية ، واستمكن شبيب من اهل العسكر وامر اصحابه برفع السيف عنهم ، ودعاهم الى البيعة ، فبايعه الناس ، ولكنهم هربوا من ليلتهم، ثم اقبل شبيب الى الكوفة وقد دخلها سفيان بن الابرد باهل الشام ، فاشتد الحجاج بهم ، واستغنى عن اهل الكوفة وقال لهم : « يا اهل الكوفة لا اعز الله من اراد بكم العز ..ولا نصر من اراد بكم النصر ».

وانتهى شبيب حتى نزل (حمام اعين) ، فدعا الحجاج الحارث بن معاوية الثقفي فوجهه في جماعة من الشرط لم يشهدوا يوم عتاب ، ومعهم نحو مائتين من اهل الشام ، فبلغ عدد الجميع نحو الف مقاتل ،

فالتقوا بشبيب في زرارة ،فحمل عليهم فهزمهم وقتل رئيسهم الحارث واقبل الى الكوفة ، ونزل بالسبخة وابتنى بها مسجداً ، وأمر الحجاج أهل الكوفة ، بالاخذ بافواهها وصار يُخرج الى شبيب جماعة بعد اخرى ، وعلى كل جماعة احد غلمانه في ثياب فاخرة وخيل فارهة ، وشبيب يظنه الحجاج فيقتله ويقول :

ــ « ان كان هذا الحجاج فقد أرحتكم منه .. »

الحجاج يقاتل شبيباً

فلما رأى الحجاج ذلك نزل اليه بنفسه في اهل الشام .. وهو على بغل محجل تباشر به وقال : « هذا اليوم أغر محجل » ..

وكان شبيب في ستمائة فارس ، فأقبل عليه يقاتله ، ودعا الحجاج بكرسي وجلس عليه وحثّ اهل الشام على صدق القتال ،فاستقبلوا القوم باطراف الأسنة ، وجثوا على الركب وأشرعوا الرماح ، وثبتوا لاصحاب شبيب ، وصاروا يطعنونهم قدماً ، وصار الحجاج يقدم كرسيه شيئاً فشيئاً ، وهو يحرض أهل الشام على القتال ، وصار شبيب يستحث أصحابه ويحرضهم على الصبر ،واقتتل الفريقان اقتتالا شديداً،وأهل الشام يدفعون اصحاب شبيب الى ان انتهوا الى المسجد الذي ابتناه ، فقال الحجاج : يا أهل الشام ، يا أهل السمع والطاعة ، هذا والله اول الفتح والذي نفس الحجاج بيده ..

وحمل خالد بن ورقاء على شبيب حملة موتور حرّان ، فقتل مصاداً اخا شبيب ، وقتلت في هذه الوقعة غزالة امرأته ، وانهزم شبيب ومن معه من اصحابه ، فأمر الحجاج خالد بن عتاب

بأتباعهم فأتبعهم ، حتى قطعوا جسر المدائن، فدخلوا ديراً فحصرهم خالد فيه ، فخرجوا عليه فهزموه ومن معه نحواً من فرسخين حتى القوا بانفسهم وخيلهم في دجلة ، والقى خالد بنفسه وفرسه .

فنظره شبيب فقال : قاتله الله فارساً وفرسه .. هذا اشد الناس، وفرسه اقوى فرس .

فقيل له : هذا خالد بن عتاب .

فقال : معرق في الشجاعة .. والله لو علمت لأقحمت خلفه ولو دخل النار .

مقتل شبيب

ثم دعا الحجاج حبيب بن عبد الرحمن الحكمي.. وبعثه في اثر شبيب في ثلاثة آلاف من اهل الشام وقال له :

ــ احذر بياته وحيثما لقيته فنازله، فان الله قد فل حده وقصم نابه.

فسار وراءه حتى بلغ الانبار ، وهناك بيتهم شبيب فوجدهم حذرين ، فقاتلهم هو واصحابه ، وكانوا ثلاثين ، قتالاً شديداً جداً حتى قال بعض اصحاب حبيب : لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة رجل لأهلكونا . . فلما يئس شبيب واصحابه من القوم انصرفوا عنهم، ومضوا حتى قطعوا دجلة الى الاهواز ، ثم الى فارس ثم ارتفعوا الى كرمان ، فامر الحجاج سفيان بن الابرد ان يسير اليه ، فلحقه بجسر دجيل الاهواز . . وانضم اليه زياد بن عمرو في اربعة آلاف . . فقاتلهم شبيب واصحابه اشد قتال قاتله قوم ، فلما اتى عليهم المساء امر شبيب اصحابه ان يعبروا النهر حتى اذا اصبحوا باكروهم ..

فعبروا امامه وتخلف في اواخرهم ، فاقبل على فرسه فنزا فرسه على فرس كانت امامه ، فوقع حافره على حرف السفينة ، فسقط في الماء وسقط معه شبيب، وهو مثقل بالحديد من درع ومغفر وغيرهما ، فغرق ، وقال له بعض اصحابه وهو يغرق : اغرقاً يا امير المؤمنين ؟

قال : ذلك تقدير العزيز العليم .

فلما رأى أصحاب شبيب غرق اميرهم انصرفوا وتركوا معسكرهم ليس فيه احد .

ولما اصبح سفيان وبلغه غرق شبيب وانصراف اصحابه .. كبّر وكبّر اصحابه معه ، وطلبوا شبيباً واستخرجوه من النهر ، وشقوا بطنه واخرجوا قلبه فرأوه مجتمعاً صلباً كأنه صخرة ، وكان يضرب به الارض فينزو نحو قامة انسان ،فشقوه فرأوا في داخله قلباً صغيراً كالكرة ، فشقوه فأصابوا علقة الدم في داخله .

وكان غرقه في سنة ٧٧ او في سنة ٧٨ على اختلاف في الرواية[١].

---

(١) (دجيل) الذي غرق فيه شبيب هو (دجيل) الاهواز ، منبعه من جبال اصبهان ، وهو غير (دجيل) بغداد فان ذلك منبعه من دجلة بين تكريت وبغداد

وام شبيب يقال لها جهيزة اصلها من سبي الروم ، رآها بالشام ابو شبيب يزيد بن نعيم ، وكانت جميلة تأخذها العين ، فاشتراها واحبته حباً شديداً ، واسلمت معه بعد ان امتنعت عليه زمناً واولدها شبيباً وهي مسلمة . وكانت ولادته يوم النحر سنة ٢٥ او ٢٦ . وقد رأت في حملها انه خرج منها شهاب سطع بين السماء والارض وملأ الآفاق ، ثم وقع في الماء فخبا ، فاولوه ان ولدها سيعلو ويعظم سريعاً . وانه بولادته يوم النحر سيكون صاحب دماء يهرقها . وان منيته ستكون بالغرق . فكان ينعى اليها بالقتل فلا تصدق . حتى اذا قيل لها : غرق صدقت.وكانت هي وامرأته غزالة من الشجاعة بمكان عظيم... وكانتا تشهدان معه الحروب والزحوف ...

وكذلك يجد القارىء ألواناً من البطولة والجلد والحرب حين يشاهد جماعة قليلة تقف لجيوش امبراطورية عظيمة ، كانت تملك الارض المعمورة في عهدها ، فلا توفق مع هؤلاء القوم في كثير ولا قليل ، إلا بعد عناء وزحوف ومعارك كثيرة دامية .. تعددت ضحاياها ، وعمّ خرابها ، فاعجب بعد هذا للفتن الداخلية تمزق الامة العربية ، وتصرفها عن غاياتها العليا ، من نشر المعرفة وتركيز الحضارة ، وتوطيد النزعة الانسانية بين شعوب العالم .. حيث لا فرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح ..

— ٧ —

نهاية الخوارج

حرب المكر والخديعة

رأى (المهلب) بعد ما رأى من شدة الخوارج وبسالتهم ،ان يستعمل الحيلة والمكر في تمزيقهم ، فوفق الى ذلك توفيقاً عظيماً ، ووقع الاختلاف بين الخوارج اصحاب (قطري) سنة ٧٧ للهجرة ، فخالفه بعض انصاره ، واعتزله (عبد ربه الكبير) ، وهو احد زعمائهم وأقام البعض الآخر مع قطري ..

وسبب ذلك ان (المهلب) بعد ان اخذ منه (الحجاج) عتاب ابن ورقاء لقتال شبيب ، أقام بسابور ، يقاتل قطرياً وأصحابه نحواً من سنة ، ثم انه زاحفهم يوم البستان فقاتلهم قتالاً شديداً ، وكانت كرمان بأيدي الخوارج ، وفارس في يد المهلب ، فبعدت على الخوارج مراكز تموينهم .. وانقطعت عنهم الامدادات من فارس، فخرجوا حتى أتوا مدينة كرمان ، فقاتلهم المهلب بها اكثر من سنة ، وملك عليهم فارس جميعها ، فأخذها الحجاج منه وبعث اليها

عماله ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فكتب الى الحجاج يأمره بأن يترك خراج فارس للمهلب ، وجملة كور اخرى يستعين بها على قتال العدو .. فبعث المهلب اليها عماله ، فكانت له قوة جديدة ..

وبعث الحجاج الى المهلب البراء بن قبيعة .. ينهضه الى قتال الخوارج ، فأخرج المهلب بنيه ، كل واحد منهم على كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم ، ووقف البراء على تل قريب يشاهد القتال ، فاقتتل الفريقان أشد قتال رآه الناس ، من الصبح الى منتصف النهار ثم انصرفوا .. فجاء البراء الى المهلب فقال له :

ـ لا والله ما رأيت فرساناً كبنيك قط ، ولا كفرسانك من العرب فرساناً ، ولا رأيت قط أصبر وأبأس من القوم الذين يقاتلونك فأنت والله معذور ..

ثم ان المهلب خرج بالناس وبأبنائه الى قتال الخوارج عندالعصر فقاتلوهم كقتالهم في اول النهار وانصرفوا عند المساء .

فقال المهلب للبراء : كيف رأيت ؟

قال : رأيت قوماً ما يعينك عليهم إلا الله ..

فرده المهلب الى الحجاج فأخبره بما رأى ..

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج أشهر .. لا ينال منهم كبير امر ، الى ان قتل عامل لقطري على ناحية من كرمان رجلاً من الخوارج ، كان ذا بأس وكان كريماً عليهم ، فجاؤوا الى قطري يسألونه ان يسلم اليهم العامل ليقتلوه فأبى ، فأنكروا عليه ذلك ..

وكان في الازارقة رجل حداد يسمى (ابزي) يعمل لهم

نصالاً مسمومة فيرمون بها اصحاب المهلب ، فشكا أصحاب المهلب اليه ذالك، فقال :

ــ سأكفيكموه ان شاء الله .

ثم وجه المهلب رجلًا من اصحابه بكتاب الى (ابزي) يقول فيه : « انه وصلت سهامك ، وقد وجهت اليك بألف درهم فاقبضها » .

وقال للرجل : إلق هذه الدراهم والكتاب في معسكر قطري، واحذر على نفسك .. فرفع الكتاب والدراهم الى قطري ، فسأل (ابزي) عنها فأنكرها ، فقتله ..

فأنكروا عليه ان يقتل رجلًا قد يكون بريئاً ،فقال لهم قطري:

ــ قتل رجل في صلاح الناس غير منكر ، وللأمام ان يحكم بما يراه صالحاً ، وليس للرعية ان تعترض عليه ..

فتنكر له عبد ربه في جماعة .. ولكنهم لم يفارقوه ..

فلما بلغ المهلب شأنهم دسّ الى قطري رجلًا وقال له :

ــ اذا رأيته فاسجد له ، فاذا نهاك فقل : إنما سجدت لك .

ففعل الرجل ذالك ، فقال قطري : إنما السجود لله ..

فقال : ما سجدت إلا لك..

فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله .

وقام أحدهم فقتل الرجل ، فغضب قطري ووقع الاختلاف ..

*

ووجه المهلب بعد هذا رجلًا ليسألهم عن رجلين خرجا مهاجرين اليهم ، فمات احدهم في الطريق ، ووصل اليهم الآخر ، فامتحنوه في عقيدتهم فلم يؤمن بها ، ما قولهم فيهما ؟

فقال بعضهم : اما الميت فمؤمن من اهل الجنة ، وأمـــا الآخر فـكافر ..

وقال آخرون : بل هما كافران ..

فاشتد الخلاف بينهم فثاروا على قطري وخلعوه[1]، وولوا عليهم عبد ربه الكبير ، وبقي مع قطري عصابة قليـــلة منهم ، ووقع القتال بينهم ..

وفي مصدر آخر: ان قطرياً غادرهم الى اصطخر فأقام شهراً والقوم مختلفون ، ثم أقبل ، فنصحهم صالح بن مخرق بالاتفاق والتفاهم لان الاختلاف يذهب بقوتهم ، ويعود بالخير على عدوهم ، فتهايج الناس وهاجموا جيش المهلب ، وأبلى يومئذ المغيرة ابنه بلاءاً عظيماً ، وصار في وسط الخوارج ، فجعلت الرماح تحطه وترفعه ، واعتورت رأسه السيوف ، وعليه ساعد من حديد،واخيراً وقع على الارض فاستنقذه فرسان من انصاره ..

وأعلم المهلب الحجاج بما كان من اختلافهم واقتتـــالهم ، فأمره ان يناهضهم وهم على اختلافهم ، فأبى المهلب .. وكتب الى الحجاج : ان الرأي ان يتركهم يقتل بعضهم بعضاً فان في ذلك إما هلاكهم وإما اضعافهم ، وليس من الرأي ان يتفقوا عليه » .. وقد اصاب فانهم مكثوا نحو شهر يقتل بعضهم بعضاً،ثم رحل عنهم قطري مع من تبعه، ثم رجع اليهم فقام فيهم صالح بن مخرق احد رؤسائهم وقال : يا قوم انكم أقررتم عين عدوكم ،وأطمعتموهم فيكم لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا الى سلامة القلوب ، واجتماع الكلمة ، ثم

---

(١)(الكامل) للمبرد

خرج الى اصحاب المهلب فنادى :

ــ يا ايها المحلون .. هل لكم في الطراد فقد طال العهد به ؟

فتهايج القوم وأسرع بعضهم الى بعض . . وأبلى المغيرة يومئذ بلاء حسناً ، وصرعه عبيدة بن هلال .

فاستنقذ المغيرة فرسان من الازد ، وقال له رجل :

ــ كنا نعجب كيف تصرع ، والآن نعجب كيف تنجو .

*

وبعث الحجاج الى المهلب رجلين أحدهما من كلب ، والآخر من سلَيم يستحثانه على القتال ، فتمثل المهلب بقول أوس بن حجر :

ومستعجب مما يرى من أناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

وقال ليزيد ابنه : حرّك الخوارج . . فحرّكهم فتهايجوا ، وحمل رجل منهم على رجل من اصحاب المهلب فطعنه فشكّ فخذه بالسرج . فقال المهلب للسلمي والكلبيّ : كيف نقاتل قومـاً هذا طعنهم ؟ وجاء الرقاد ـــ وهو من أعظم فرسان المهلب ـــ وبه نيّف وعشرون جراحة وضع عليها القطن ، وحمل يزيد بن المهلب على جماعة منهم فولوا فحماهم فارسان ، فحمل رجل يقال له قيس الخشني عـلى احد الفارسين فصرعه وحمل عليه الآخر وتعانقا فسقطا على الأرض ، فصاح قيس : أقتلونا جميعاً . فأسرع فرسان من الفريقين فحجزوا بينهما : فاذا خصمه امرأة ، فقام قيس مستحيياً . فقال له يزيد :

ـ اما انت فبارزتها على انها رجل .

فقال : أرأيت لو قُتلت ، أما كان يقال : قتلته امرأة ؟

الاختلاف

ثم حاربهم المهلب بعد ذلك بالسيرجان حتى نفاهم عنهـا الى جيرفت ، وهناك اختلفت كلمتهم مرة اخرى ، وكان سبب ذلك ان عبيدة بن هلال كان يختلف الى امرأة رجل حداد في بيته،ويدخل عليها بغير اذن فشكوه الى قطري ، فقال لهم :

ــ ان عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم..

ودافع عبيدة عن نفسه وأنكر ما نُسب له،فصدقه قوم،وكذّبه آخرون .. وكثر الخلاف فيما بينهم، حتى أحس قطري بالشر فبايع المقعطر العبدي ، فكرهوا ذلك وسألوه إعفاءهم من مبايعته.. فأبى، فاختلفوا وتهايجوا ، وحمل فتى منهم على صالح بن مخراق فقتله ، ثم اقتتلوا فيما بينهم قتالاً شديداً ،وارتحل قطري مع أتباعه الى طبرستان وبايع الباقون عبد ربه الكبير ..

وجلس المهلب للناس بعد ارتحال قطري ، فدخل عليه وجوههم يهنئونه، ووجه المهلب الى الحجاج يبشره بتمزق الخوارج واختلافهم ويقول له : انه نزل منزل قطري وانه يقيم على عبد ربه ومن معه ، ويسأله ان يوجه في اثر قطري رجلاً جلداً .. فسرّ الحجاج بكتابه سروراً عظيماً أظهره ، وكتب اليه يستحثه على قتال القوم ، فلما ورد الكتاب على الحجاج جمع اصحابه وقال لهم :

ــ يا قوم ان الله قد اراحكم من امور أربعة ، قطري ، وصالح بن مخراق ، وعبيدة بن هلال ، وسعد بن الطلائع ، وانما بين ايديكم عبد ربه الصغير في عدد قليل تقتلونهم ان شاء الله .

فكانوا يتغادون الى القتال ويتر وحون ، افتصيبهم الجراح ثم يتحاجزون ، وكان المهلب قد تمكن من حصر جماعة ابن عبد ربه في (جيرفت) ، وكرر عليهم القتال وهو لا ينال منهم حاجته ،ثم ان الخوارج طال عليهم الحصار ، فخرجوا من جيرفت باموالهم وحرمهم ، فقاتلهم المهلب قتالاً شديداً، حتى عقرت الخيل وتكسرت الرماح وقتل الفرسان فتركهم ، فساروا ، ودخل المهلب جيرفت، ثم سار يتبعهم الى ان لحقهم على اربعة فراسخ منهـــا ، فقاتلهم من الصباح الى نصف النهار ، ثم كفّ عنهم واقام عليهم ..

وعندئذ جمع عبد ربه اصحابه وقال لهم :

ــ يا معشر المهاجرين ان قطرياً ومن معه هربوا طلب البقاء، ولا سبيل اليه ، فالقوا عدوكم وهبوا انفسكم لله ..

ثم عاد للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً انساهم ما قبله ، فبايع جماعة من اصحاب المهلب على الموت ، ثم ترجلت الخوارج ، وعقروا دوابهم واشتد القتال وعظم الخطب حتى قال المهلب :

ــ ما مرّ بي مثل هذا اليوم ..

واخيراً انتصر المهلب واصحـــابه على الخوارج .. وهزموهم وكثر القتلى فيهم ، وكان فيمن قتل عبد ربه الكبير ، وكان عدد القتلى اربعة آلاف قتيل ، ولم ينج من الخوارج إلا القليل ، واخـذ المهلب عسكرهم ، واستولى على كل ما كان فيه ..

وكانت هذه المعركة من أشد المعارك وأدماها ، وقد اقسم فيها الطرفان على القتال حتى الموت ، فكان النصر للمهلب ، فأرسل بالخبر الى الحجاج وكان ذلك سنة ٧٧ للهجرة ...

رسول المهلب عند الحجاج

لما وصل رسول المهلب الى الحجاج ، يحمل اليه خبر الانتصار الحاسم سأله الحجاج :

ــ كيف خلفت جماعة الناس ؟

قال : خلفتهم بخير ، قد أدركوا ما أملوا ، وأمنوا ما خافوا ..

قال : فكيف كان بنو المهلب فيكم ؟

قال : كانوا حماة السرح نهاراً ، فاذا كان الليل ففرسان البيات ..

قال : فأيهم كان انجد .. ؟

قال الرسول : كانوا كالحلقة المفرغة لا يدرى اين طرفها ..

قال الحجاج : فكيف انتم وعدوكم ؟

قال : كنا اذا اخذنا عفونا ، واذا اخـــذوا يئسنا منهم ، واذا اجتهدوا واجتهدنا طمعنا فيهم ..

قال الحجاج : فكيف كان المهلب وكنتم له ؟

قال : كان لنا منه شفقة الوالد ، وله منا برّ الولد .

ثم استقدم الحجاج المهلب ، فلما قدم اجلسه الى جانبه ، واظهر اكرامه وبره وقال : يا أهل العراق .. انتم عبيد المهلب ..

وسأله الحجاج عن الحرب فقال المهلب :

ــ أما والله ما كنا أشد من عدونا ولا أجدّ ، ولكن دفع الحق الباطل ، وقهرت الجماعة الفتنة والعاقبة للمتقين .. وكان ما كرهناه من المطاولة خيراً لنا مما اصبناه من المعاجلة ، ــ يعرض بكتب الحجاج له التي كانت تحثه على الاسراع في مناجزة القوم ومحاربتهم ــ

فقال له الحجاج : صدقت .. أذكر لي القوم الذين أبلوا وصف لي بلاءهم .. فذكرهم المهلب على مراتبهم في البلاء ، وقدّم اولاده، وقال:لو تقدمهم واحد في البلاء لقدمته، ولولا ان أظلمهم لأخرتهم..

فقال الحجاج : صدقت ، وما أنت أعلم بهم مني وان حضرتَ وغبتُ ، انهم لسيوف من سيوف الله ..

وذكر المهلب جماعة بعد أولاده ومنهم الرقاد ، فقال الحجاج :

ــ من الرقاد ؟

فدخل رجل طويل .. فقال المهلب :

ـ هذا فارس العرب ..

فقال الرقاد للحجاج :

ـ أيها الأمير ، كنت اقاتل مع غير المهلب فكنت كبعض الناس ، فلما صرت مع من يلزمني الصبر ، ويجعلني اسوة نفسه وولده ، ويجازيني على البلاء ، صرت انا وأصحابي فرسانا ..

فأمر الحجاج بتفضيل قوم على قوم في العطاء ، وزاد ولد المهلب ألفين ألفين ..

قطري في طبرستان

ولما توجه قطري الى طبرستان ، وجه اليه الحجاج سفيان بن الأبرد في جيش عظيم من اهل الشام،وأمر اسحاق بن محمد بن الأشعث ، قائد جيش الكوفة بطبرستان بالانضمام اليه ، فسار سفيان بجيش الشام وجيش الكوفة ، في طلب قطري حتى لحقوه في شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه فتفرق عنه اصحابه ، ووقع عن دابته في

سفل الشعب وتدحرج حتى خرّ الى أسفله ..

ورأى احدهم قطري وهو يتدحرج فأدركه وقتله ، وأرسلوا رأسه الى الحجاج .

ثم سار سفيان الى عبيدة بن هلال..وقد تحصن مع انصاره في قصر (بقومس)..فحاصرهم حتى جهدوا وأكلوا دوابهم،ثم خرجوا اليه فقاتلهم حتى قتلهم عن آخرهم وبعث برؤوسهم الى الحجاج ، وكان ذلك سنة ٧٧ للهجرة ..

وكذلك كانت نهاية الخوارج عهد الحجــاج بعد عراك دام السنوات العديدة ، وصفنا بعض مظاهره وألوانه فيما تقدم من فصول ، وهي كالحة شديدة ، دامية مفجعة ..

- ٨ -

تعاليم الخوارج

المستشرقون والخوارج

عُني المستشرقون بالخوارج ، فأسماهم (فان فلوتن) بالجمهوريين، وان كانت عناية المستشرقين بهم لا تتعدّى المقالات والدراسات الصغيرة تنشرها بعض صحفهم التاريخية الأسيوية، وتصدر في نشرات صغيرة لا تشبع نهم القارىء ، ولا تعرض بالتحليل والتفصيل لهذه الحركة التي بدّلت وجه التاريخ ...

والخوارج أقرب في مبادئهم الى الجمهورية والشورى منهم الى شيء آخر ،ومبادؤهم الديموقراطية متطرفة، ولا يصح ان يقال انهم اصحاب المذهب الجمهوري .. لان هذا المذهب قد اعتمده الاسلام قبلهم ، وأقرّ الحكم شورى بين الناس ، وكان اول ما بدأوه بحث الخلافة ، لان العراك كان دامياً حولها ، فقالوا : ان الخلافة حق لكل عربي حر ،ولا يصح للخليفة ان ينزل عنها اذا ما اختير لها ، واذا جار الخليفة استحلوا عزله وقتله اذا قضت الضرورة

بذلك[١] . ثم عمد الخوارج الى تعديل نظريتهم الاولى في الخلافة ، فاطلقوها بين المسلمين جميعهم .. لا فرق عندهم بين العربي وغير العربي شرط ان يكون مسلماً عادلاً .. ولعل سبب ذلــك انضمام بعض المسلمين من غير العرب اليهم ، فجعلوا عندئذ حق الخلافة شائعا بين جميع المسلمين احراراً كانوا ام عبيداً ..

وانضم الى الخوارج وغذى صفوفهم عرب خلص من ابنـــاء الصحراء ، وبعض القبائل العربية ذات الخطر والشأن كقبيلة تميم مثلاً ، وابطال القادسية ، ورؤساء الجند وغيرهم ، وانضم اليهم بعض القراء من جند علي خصوصــاً بعد فشل المسلمين وخيبة الامــل في حقن دماء المسلمين ، ومن غريب امرهم انهم كانوا يغرقون في التدين اغراقاً ليس له ما يبرره ، ويتأولون الاحكام الاسلامية تأويلاً لم يقل به محمد ، ولا دعا اليه القرآن ، وقد أحس الخوارج وأذكى نفوسهم ما رأوه من سعي اولي الامر الملحّ لمصالحهم الخاصة ، وآذاهم انهيار الشوري في السلام ، وقبول سكان المدن الاسلامية بالملــك العضوض .

وتعاليم الخوارج منذ ظهورهم مزيج مـن السياسة والدين ، فشعارهم (الحكم لله) شيء يمتزج بالدين والسياسة معاً ، فلا يصح والحالة هذه ان يقال إن دعوتهم هذه كانت دينية محضة او سياسية محضة[٢] .. وظلت دعوتهم بسيطة حتى خلافة عبد الملك بن مروان حيث

---

(١) المسعودي مروج الذهب ج ٢ ص ١١٠

(٢) يقول نيكلسون : ان الدافع الاساسي للحركة الخارجية انما هو دافع ديني برغم ما كان يشوبه من المظهر السياسي .

مزجوا فيها كثيراً من التعاليم الجديدة ، وذهبوا يتأولون الاحكام الدينية تأويلاً فيه الكثير من الاغراق والتعقيد كما قدمنا ، فقالوا : ان العمل باوامر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزء من الايمان ، وليس الايمان الاعتقاد بالله ورسالة محمد فحسب، فمن اعتقد ان لا إله الا الله وان محمداً رسول الله ، ثم لم يعمل بما يفرضه الدين ، وارتكب الكبائر فهو كافر ، وكذلك نرى ان اغراقهم في الدين كان على غرار اغراقهم في السياسة ، وانهم في ذلك قد شوهوا روعة الدين الاسلامي الذي كان سهلاً هيناً .. لا عسيراً صعباً ..

وقد امتازوا بشدة تمسكهم بالقرآن واتباع أحكامه ، وغلوا في ذلك غلواً شديداً ، حتى لقد تأولوا آياته على غير حقيقتها ، وعدوا مرتكب الكبيرة ، بل مرتكب الصغيرة منافقاً كافراً ، وخرجوا على أئمتهم للهفوة الصغيرة يرتكبها أحدهم ، وتشدد كثير منهم في أمر مخالفيهم في الرأي من المسلمين ، فعدوهم كفاراً ، حتى ليحكى ان واصل بن عطا رأس المعتزلة وقع في ايديهم ، فادعى انه مشرك مستجير ، اذ رأى ان هذا ينجيه اكثر مما تنجيه دعواه انه مسلم مخالف لهم ..

ولو تكلفوا الترويج لنظرياتهم دون ارهاق مخالفيهم ، لتلطف التاريخ في شأنهم ، ولكنهم اغرقوا إغراقاً هو أقرب الى الاحراج منه الى شيء آخر ، فقد كانوا لا يرحمون المرأة ولا الطفل الرضيع ولا الشيخ الفاني ، وكانوا يأتون أفظع المنكرات واكبر الكبائر ، دون شفقة ولا رحمة ، ثم يتحرمون عن تافه الاشياء وصغير الامور .. ومثل هذا التناقض في اعمالهم كان كفيلاً مع الايام

بافنائهم والقضاء عليهم ، وهو ما اصبح أمراً واقعاً ..

ولهم نظرية غريبة.. ولكن لها روعتها وخطرها لو كان بالامكان إقرارها فقد قالوا : انه يجوز ان لا يكون إمام اصلاً اذ لم تدع الضرورة الى اختياره ، ودعوا النـــاس الى إنصاف بعضهم بعضاً ، فلا يكون هناك داع لاقامة إمام مثلاً ، وهـــذا شبيه كل الشبه (باللاحكومية)،وهو ماينادي به بعضهم اليوم وينادون الى إقراره، ما كان الى ذلك سبيل ، وهو يعد أرقى ما يمكن ان يصل اليه الناس من نظم الحكم ، وقد دعا اليها الخوارج منذ الف وثلاثمائة سنة .

والواقع ان اكثارهم من درس القرآن ، ودرس تاريخ السلف جعلهم لا يفكرون إلا بان تكون الدنيا على هذا النحو من الصلاح والفلاح والصدق والاخلاص ، وفاتهم تبدل الايام وتقلب الاحوال.

الخوارج وفرقهم

وقد انقسم الخوارج الى عشرين فرقة كانت تخالف كل منهـــا الاخرى في تعاليمها كلها او بعضها ، وأشهر فرقهم : الأزارقة ..

وهم اصحاب نافع بن الازرق ، وكان من اكبر فقهـــائهم وزعمائهم وكانت فرقته أعظم فرقهم وأشدها شوكة ومراساً ، وقد كفّر هو واصحابه علي ابن ابي طالب وجميع المسلمين ، وقال نافع : « انه لا يحل لاصحابه المؤمنين ان يجيبوا احداً من غيرهم اذا دعاهم للصلاة ، ولا ان يأكلوا من ذبائحهم ولا ان يتزوجوا منهم ، وهم في نظره مثل كفار العرب وعبدة الاوثان » وقال عن بـــلادهم : « انها دار حرب ، وحلل قتالهم، وقتل اطفالهم ونسائهم ، وكان لا

يجيز التقية في قول ولا في عمل ، وكان يستحل الغدر بمن خالفه ويكفّر القعدة ممن كانوا على رأيه عن القتال مع قدرتهم عليه ، أو عن الهجرة اليه ، وأوجب امتحان من ينضمون اليه ، بأن يَدفع اليه واحداً من اسرى مخالفيهم ويأمره بقتله ، فان فعل صدقوه وان أبى قالوا :

ــ هذا منافق ومشرك .. وقتلوه .

وهم يكفرون أيضاً مرتكب الكبيرة مستدلين بكفر ابليس الذي يقولون عنه ، انه لم يرتكب إلا كبيرة واحــدة حيث أمر بالسجود فأبى .. وزاد نافع على ذلك ان أسقط حدّ الرجم عن الزاني المحصن لانه لم يرد عليه نص في القرآن ، واسقط الحد كذلك عمن قذف الرجل المحصن ، ولكنه أقامه عــلى من قذف المحصنات من النساء ، وحكم بقطع يد السارق في القليل والكثير .. وقد كفرهم المسلمون بهذه البدع التي استحدثوها[١] .

النجدية

وهم اتباع نجدة بن عامر الحنفي ، ومن تعاليمه التي انفرد بها : ان المخطىء بعد ان يجتهد معذور ، وان الدين أمران : معرفة الله ومعرفة رسوله وتحريم دماء المسلمين ، وتحريم غصب اموالهم والاقرار بما جاء من عند الله جملة ، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله الى ان تقوم الحجة ، ومن اداه اجتهاده الى استحلال حرام او تحريم حلال فهو معذور ، ومن انزل العذاب على المجتهد المخطىء قبل

(١) الفرق بين الفرق للبغدادي . والملل والنحل للشهرستاني .

قيام الحجة عليه فهو كافر ، وعظّم جريمة الكذب على الزنا ، وأسقط حد شرب الخمر وأجاز التقية ، وقال : ان القعود عن القتال جائز والجهاد اذا أمكن أفضل ، واستحلّ دماء أهل الذمة واموالهم وحكم بالبراءة ممن حرمها ، وأجاز عدم اقامة امام ، وانما على الناس ان ينصف بعضهم بعضاً فيما بينهم .. فان رأوا ان ذلك لايتم إلا بامام يحملهم عليه فأقاموه جاز .

وكان نجدة قد فارق نافع بن الأزرق كما قدمنـــا ، وذهب الى اليمامة ، ثم راح ينهب السبل ويقطع الطرق ، بين اليمامة والبحرين ، وأقام في البحرين حتى قدم مصعب البصرة سنة ٦٩ فبعث له جنداً في اربعة عشر الفاً فهزمهم واستولى على معسكرهم ..

وخرج نجدة الى صنعاء في جمع قليل فبايعه اهلها، وخافوا ان يكون وراءه اصحابه ، فلما أقام اياماً لم يروا مدداً يأتيه ندموا على بيعته وبلغه ذلك فقال :

ــ ان شئتم اقلتكم بيعتكم وجعلتكم في حل منها .. وقاتلتكم ..

وقالوا : ما كنا نستقيل بيعتنا ، فبعث الى اطرافها وقراهـــا فأخذ منهم الصدقة ، ووجه رجـــلاً من قبله الى حضرموت فجبى صدقات أهلها ..

وحج نجدة في سنه ٧٠ ، وكان في أيام يزيد بن معاوية قد قاتل مع ابن الزبير غضباً للبيت وما أنتهك من حرمتـه ، فلما حجّ هـذه المرة كان في ثمانمائة وستين رجلاً .. ويقال في الفين وستمائة ، فصالح ابن الزبير على ان يصلي كل واحد باصحابه ، ويقف بهم ويكف بعضهم عن بعض ..

ولما عاد نجدة الى اليمن، قطع الميرة عن اهل الحرمين من اليمامة والبحرين ، ثم رجع عن ذلك لما كتب له (ابن عباس) بعدم جواز ذلك حتى مع المشركين فكيف مع المسلمين .. ثم اختلف نجدةمع اصحابه فتخلوا عنه وقتلوه ..

البيهسية

وهم اصحاب ابي بيهس بن جابر ، ومن تعاليمه انه لا يسلم احد حتى يقر بمعرفة الله ومعرفة رسله، ومعرفة ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، والولاية لأولياء الله ، وكان يكفر (الواقفية) وهم الذين يقولون اننا نقف فيمن اقترف فعل الحرام ، وهو لا يعلم أحرام ام حلال ، لأنه يعتبر انه من ضمن الأشياء التي جاء بها النبي والتي تجب معرفتها ،المحرمات التي جاء الوعيد والتهديد لمن فعلها ،فهذه يجب على المسلمين معرفتها بعينها وتفسيرها والاحتراز عنها .. ويقول ان هناك اشياء اخرى لا يجب على المسلم ان يعرفها إلا باسمها ولا يضره الجهل بتفسيرها ، وكان يقول : إن الايمان هو العلم بالقلب دون القول والعمل ، أما مخالفوهم فهم كأعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم .. تحل الاقامة معهم كما فعل المسلمون في اقامتهم .

الاباضية

وهم أتباع عبدالله بن أباض التميمي ، ويختلفون عن غيرهم من فرق الخوارج في انهم لم يغلوا في الحكم على مخالفيهم واعتبروهم كفار نعمة فقط ، وقالوا انه يحلّ التزوج منهم، ويتوارث الخارجي

وغيره ، وهم الى المسالمة أميل حتى قالوا : انه لا يحل قتال غـــير الخوارج غيلة ولا سبيهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة واعلان القتال، فاذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل.

اما الذهب والفضة او غيرهما فانهم يردونه الى اعدائهم،يرون ان بلاد مخالفيهم من المسلمين هي ديار توحيد ،إلا معسكر السلطان (يقصدون منها حاكم بني امية او غيره من الأمراء الجائرين) ،فانه دار بغي .. وقالوا : ان مرتكب الكبيرة من اهل القبلة موحد لا مؤمن ، فهو كافر .. كفر نعمة الله عليه ، وان افعال العبـــاد مخلوقة لله تعالى احداثاً وابداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً ، ولم يعتبروا أوامر الله ونواهيه موجهة الى المؤمن فحسب ، بل ان الكافر مطالب بها ايضاً ، وليس في القرآن تخصيص الأمر او النهي بواحد منهما .. وهم جماعة متفرقون في مذاهبهم .

الصفرية

وهم اصحاب زياد بن الأصفر ، وهو لا يكفر الذين قعدوا عن القتال ما داموا متفقين في الدين والاعتقاد ، وقال ان التقية جائزة في القول دون العمل، ولم يحكم بقتل اطفال المشركين ولا بتكفيرهم او تخليدهم في النار ، وفرّق بين الكبائر التي يلزم فيها الحد والتي لا حدّ عليها ، فلم يكفر مرتكب الاولى ، وانما كفّر مرتكب الثانيه ، وكان اكثر الصفرية من القاعدين الذين لا يحاربون..

هؤلاء أشهر فرق الخوارج..والناظر الى مبادئهم يجد انهم اشتطوا في الحكم على مخالفيهم حتى ساووا بينهم وبين الكفار عبدة الأوثان ،

فلا عجب اذا اشتطوا في حربهم وبذلوا نفوسهم في سبيل الذود عن مبادئهم ، وقد ضربوا المثل في الشجاعة النادرة والبطولة الفـــذة ، وشغلوا ــ كما رأينا ـ الحزب الأموي وغيره مدة طويلة من الزمن ، حتى كلفوا الامة الاسلامية غالياً في الأرواح والأموال ، كما نرى انهم لم يجمعوا على تكفير من يرتكب المعاصي ، فمنهم من قال مثلاً: «إنما يكفر من ارتكب معصية ليس لها عقوبة محددة في القرآن ، فأما ما لها حد مخصوص كالقتل والزنا فلا يكفر فاعلها ، بل يوصف بما ارتكبه..»

والخوارج جميعهم يبرأون من الكاذب ، ومن صاحب المعصية الظاهرة .. والأثر البدوي ظاهر بارز في المذهب الخارجي ، ففيه كل مساوىء البداوة ومحاسنها ، فهم كثيرو الاختلاف على الرؤساء، كثيرو التفرق شيعاً وأحزاباً ، محدودو النظر ، ضيقو الفكر في نظرهم الى مخالفيهم، وهم مع ذلك شجعان الى أقصى حدود الشجاعة، صرحاء الى أقصى حدود الصراحة في أقوالهم وأعمالهم ، أسهل شيء عليهم ان يبيعوا نفوسهم لعقيدتهم ، يهزأون بالتقية ، ويحتقرون من باعوا آراءهم وضمائرهم للخلفاء والامراء طمعاً في المال والجاه ، ثم هم لغلبة البداوة عليهم أبعد عن التطور الديني والعلمي والاجتماعي ، فعقيدتهم تغلب عليها البساطة البدوية الاولى ، وهم فيما عدا شذوذهم في بعض عقائدهم يمثلون الديموقراطية العربية والصراحة العربية والشجاعة العربية ، وهم دعاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدفاع عن المحرمات ، والعمل ليكون الخلفاء آية في العدل والانصاف والاخلاص ومكارم الاخلاق ...

واختلافاتهم بسيطة ساذجة سخيفة في بعض الاحيان.. خذ مثلاً هذه القصة: «خطب عبد الجبار الى ثعلبة ابنته، وكلاهما من الخوارج، فسأله ثعلبة ان يمهرها اربعة آلاف درهم، فارسل الخاطب الى ام البنت مع امرأة يقال لها ام سعيد، يسألها فيما اذا بلغت الابنة ام لا ــ لانه كان لا يرى الابن او البنت يكون مسلماً إلا اذا بلغ ــ وقال:

ــ ان كانت قد بلغت وأقرت بالاسلام لم ابال ما امهرتها..

فلما عرفت ام سعيد الأم برغبة الخطيب، قالت:

ــ ابنتي مسلمة بلغت ام لم تبلغ.

فاختلف الخاطب، وابو البنت وامها، وتدخل احد رؤساء الخوارج بالامر، فزادهم خلافاً، وبرىء بعضهم من بعض على ذلك.

فهل هناك أسفّ من هذا السبب للاختلاف، وهو ما يدلك على بساطة الخوارج وعدم تعمقهم في الدين ولا في التأويل..

ويرى الاستاذ نيكلسون[1] «ان الخوارج كانوا المثل الاعلى في الدفاع عن العقيدة والاستماتة في سبيل الانتصار للمبدأ، رغم ما كان من اعتسافهم في ذلك المبدأ واشتطاطهم في تلك العقيدة مما عاد بالفشل عليهم، وقد لانت قناتهم قليلاً وابتدأ الاعتدال والتسامح يدب الى نفوسهم ويسود افكارهم، حين وجدوا أنفسهم امام خطر داهم كاد ينتهي بابادتهم واستئصال شأفتهم.

يرى انه لم تكن لهم مآرب شخصية يرمون الى تحقيقها من

(١) تاريخ العرب الادبي.

وراء حركتهم هذه ، كما كان لغيرهم من الاحزاب السياسية الاخرى من شيعة وامويين وزبيريين » .

العراق والخوارج

وبعض المستشرقين ينكرون ان يكون الخوارج يرجعون باصلهم الى الشيعة ، ولامنس وولهوزون يقولان: « إن اهل العراق الاول كانوا يؤيدون علياً ليس لانه نسيب الرسول وزوج ابنته ، وابو سبطيه .. بل لانه نقل العاصمة من المدينة الى الكوفة ، وهذا ما حملهم على موالاة الحسن ابنه من بعده ، ثم لما توفي الحسن دعوا الحسين اليهم ومنّوه بالتأييد والمساعدة ، وانهم والحالة هذه لم يكونوا كثيري الايمان بالحكومة المنبثقة عن الامام القائم، او الحكومة الوراثية الدينية ، لانهم بايعوا ابن الاشعث بعد ذلك نكاية بالحجاج والحكومة الاموية ، كما ايدوا يزيد بن المهلب وبايعوه على اعلاء كلمة الدين عهد يزيد بن عبد الملك ، ومعنى هذا ان اهل العراق في ذلك العهد .. كانوا يحاربون لمصلحتهم لا تأييداً لابناء علي فحسب، وانهم والحالة هذه كانوا على استعداد للنهوض ضد الامويين مؤيدين كل من توسموا فيه الاندفاع والجرأة من الشيعة وغير الشيعة .. »

وهذا الرأي يحتاج الى شيء من الايضاح ، فالعراق لم يكن شيعة كله ، فقد كان بين سكانه من يتشيع ، وكان بينهم من السنة عدد كبير ، ولكن اهل العراق سواء أكانوا من السنة ام من الشيعة كانوا ينقمون على الحكم الأموي ، ويحاولون تمزيقه ما كان

الى ذلك السبيل ..وهذا سبب ثوراتهم ، واندفاعهم خلف كل من توسموا فيه الجرأة على قيادتهم سواء أكان من الشيعة ام من غيرهم..

نهاية الخوارج

وكذلك نرى ان تاريخ الخوارج لم يكن الا عبارة عن ثورات متعددة متفرقة منعزلة بعضها عن بعض ، في مختلف الايام التي حملوا لواء الثورة فيها عهد الامويين وعهد العباسيين ،لا يحاربون حكومة معينة او حاكماً مخصوصاً ، بقدر ما كانوا يحاربون كل من خالف معتقدهم ، وكان على خلاف رأيهم ..

ولم يوفق الخوارج لا الى فرض مذهبهم السياسي الذي بسطناه في الفصول السابقة ، ولا الى اقرار حكومة خاصة بهم ، بعيدة الاثر في تاريخ العرب ، مستقرة بعض الاستقرار ، الا ما كان من شأنهم في عمان في اقصى الجزيرة العربية على سواحل البحر الهندي .. حيث وفقوا الى الاستيلاء على هذه المنطقة المنعزلة والاستقلال فيها وقتاً قصيراً ، واختاروا لحكمها اميراً منهم ،وذلك سنة ٧٥١ اول نشوء الدولة العباسية وظهورها ، ولكن العباسيين حاربوهم وقتلوا إمامهم شيبان بن عبد العزيز سنة ٧٥٣ .. وعاد الخوارج فتمكنوا سنة ٧٩١ من الثورة والاستقلال واقامة إمام منهم في عمان ايضاً ، وظلوا ينعمون باستقلالهم هذا مائة سنة تقريباً،حتى ازالهم العباسيون عنها مرة ثانية سنة ٨٩٣ ، وقتلوا إمامهم وأرسلوا رأسه الى بغداد .

وآخر ثورات الخوارج في عهد الامويين كانت في عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، ولم يكن لهم شأن في العهد العباسي إلا مـا

كان من بعض الفتن الصغيرة التي لم يكن لها كبير أثر ولا شأن ..
وانتشرت الدعوة الخارجية في المغرب اثر اخفاقها في المشرق ، بين قبائل البدو أوائل القرن الثاني للهجرة ،وفشت بينهم دعوة الاباضية والصفرية ، وقامت منهم امارات صغيرة في تاهرت ، وخرج أحد زعمائهم على العبيديين في القيروان ، وحكمت اسرة اباضية هي الاسرة الرستمية في (تاهرت) اكثر من (١٣٠) عاماً .. ولم يزل حكمها إلا حين اسس الفاطميون دولتهم في المغرب .. وبعد ان دمر ابو عبيدة الشيعي (تاهرت) ٢٩٦ هجرية ، تفرق شمل الاباضيين في صحراء تونس والجزائر وفي جربة ...

ومن عمان خرج بعض الخوارج الى زنجبار ، ويوجد قسم قليل منهم في شمالي افريقية ويلقبون بالاباضية .

— ٩ —

الكلمة الاخيرة

أسباب انتصارات الخوارج

يحار القارىء في معرفة الأسباب التي مكنت الخوارج من هذه الانتصارات الرائعة ، على جيوش تفوقهم عدداً وسلاحاً كما قدمنا ، ثم لا توفق هذه الجيوش العديدة الى تشتيت شملهم إلا بعد حروب دامت اربعين سنة .. والدولة لا تزال في نشاطها وقوتها ، ورعاياها يناضلون معها ضد الخوارج ويحاربونهم حرباً شديدة مفجعة ، ثم لا يوفقون معهم في كثير ولا قليل ..

ولعل السبب في ذلك ، ان الخوارج كانوا عرباً بكل مـــا في الكلمة من معنى ، كانوا ابطال حروب وفرسان معامع ، ينزلون الى الهيجاء في شجاعة الأسد وبأس الحديد ، ومضاء السيف ،ومروق السهم ، وانقضاض النسر ، والتهاب النار ، ويحرصون على الموت في سبيل عقيدتهم حرص أهل الدنيا على الحياة ، ويستعذبون مناياهم

كما يستعذب الظمآن الماء الفرات ، ولا يهدأ لهم بال إلا اذا تنادوا الى القتال ، وماتوا في ساحات الوغى وبين المعامع ...

كانوا عرباً ، والعرب بطبيعتهم شجعان محاربون ، انظر الى قول معقل بن قيس الرياحي للامام علي رضي الله عنه :

« أصلحك الله يا أمير المؤمنين . انه كان ينبغي ان يكون مع من يطلب هؤلاء القوم مكان كل رجل منهم عشرة ليستأصلوهم ، فاما ان يلقاهم عددهم .. فلعمري ليصبرُن لهم فانهم عرب .. »

ولقد اكسبتهم هذه الشجاعة ، وهذا البأس الشديد ،والصبر على شدائد الحروب ..طبيعة بلادهم الجاهمة القاسية في الاراضي الموحشة وبين الوحوش الكاسرة ، وما كان بينهم في الجاهلية من الاغارات بعضهم على بعض ، وزاد في شجاعتهم وبأسهم واقدامهم على النزال ودُربتهم على القتال،ما باشروه من الحروب والغزوات في الاسلام، ولا سيما مع ماوصلوا اليه من استعمال آلات الوقاية كالدروع والمغافر وغيرها ..

ويدلك على ما لهم من تلك الصفات ماقاله البراء بن قبيصة فيهم ، لما ارسله الحجاج الى المهلب ليستحثه على قتالهم ، فشاهد من بأسهم وشدة مراسهم في الحرب ما راعه ، فقال للمهلب :

ــ « ما رأيت قط اصبر ولا ابأس من القوم الذين يقاتلونك ».

وقال للحجاج لما رجع اليه : «رأيت قوماً لا يعين عليهم إلاالله».

كما يدلك على ذلــك ايضاً قول المهلب ، لرسولي الحجاج اليـه ليحرضاه على قتال الخوارج .. وقد طعن عبيدة بن هلال امـامهما رجلاً من اصحاب المهلب.. فشك فخذه بالسرج :

ــ كيف نقاتل قوماً هذا طعنهم ؟

وقد كان رؤساء جيوشهم وقادة جنودهم بالدرجة العالية من البطولة والجلد والايد والصلابة ، مع سعة العلم بتدبير الحروب والتمرن على اعمالها ، وتمام الخبرة بحيلها ومكايدها كتعبية الجنود والخندقة عليهم وتموينهم بالاسلحة والذخائر واثارة الحماسة ، وإذكاء العيون على الخصوم ، واستطلاع اخبارهم وإفشاء الغلبة عليهم وما اشبه ذلك .

*

وقد ذكر ابن خلكان[1] ان (قطري بن الفجاءة) احد زعمائهم ، خرج في بعض حروبه وهو على فرس اعجف وبيده عمود خشب ، فدعا الى المبارزة فخرج اليه رجل من الاعداء ، فحسر قطري عن وجهه ، فلما رآه الرجل ولى هارباً فقال له قطري : الى اين ؟

فقال الرجل : لا يستحي الانسان ان يفر منك .

وكان قطري شاعراً بليغاً ، وفارساً مقداماً ، انظر الى شعره ، فانه يمثله كل التمثيل :

اقول لها وقد طارت شعاعاً	من الابطال ويحك لن تراعي
فانك لو سألت بقاء يوم	على الاجل الذي لك لم تطاعي
فصبراً في مجال الموت صبراً	فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حي	وداعيه لاهل الارض داعي
ومن لا يتعظ يسأم ويهرم	وتسلمه المنون الى انقطاع
وما للمرء خير من حياة	اذا ما عُد من سقط المتاع

(١) وفيات الاعيان جزء ١ ص ٤٣٠ .

وقد بلغ من جرأة شبيب وعدم اكتراثه بجيوش الحجاج ان دخل الكوفة وطاف فيها ، وقتل كثيراً ممن كانوا في مساجدها ، وادخل الفزع والهلع في قلوب اهلها حتى اغلقوا بيوتهم دونه ..

وفي شبيب يقول الشاعر :

ان صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً والريح عاصفة والموج يلتطم

زعماء الخوارج

وكان كل زعماء الخوارج على هذا الغرار ، بسالة وجرأة وتضحية ، وكان الخوارج بهذه القوة البالغة ، والبأس الشديد ، والمعرفة التامة بامور الحروب ، يستغنون عن كثرة العدد ووفرة العُدد ، ولقد رأينا كيف ان مرداساً واصحابه ــ وكانوا لا يزيدون عن اربعين رجلاً ــ هزموا جيش (بن زرعة) وكان عدد مقاتلته الفين . فقال في ذلك شاعرهم :

أألفا مؤمن فيما زعمتم ويقتلهم بآسك اربعونا

وانظر الى ما قاله في اصحاب شبيب ، بعض اصحاب حبيب ابن عبد الرحمن الحكمي احد قواد الحجاج ، وكان جيشه ثلاثة آلاف وكان اصحاب شبيب ثلاثين رجلاً فقط :

ــ « لو كان هؤلاء الخوارج يزيدون على مائة لاهلكونا » .

ويجب ان نأخذ بعين الاعتبار ظاهرة أخرى لها خطورتها واهميتها ، وهي ايمان الخوارج بعقيدتهم ، وبذلهم انفسهم في سبيلها ثقة منهم ان في ذلك مرضاة الله سبحانه وتعالى .

وقد كان لهذا الاعتقاد أثره العظيم في بسالتهم ، واسراعهم الى

الموت ، والموت يهرب منهم ، وفيما روي عن الخوارج من الاقوال وحُكي عنهم من الافعال ،ما يدل دلالة بينة على انهم كانوا يؤمنون ايماناً قوياً بانهم يحاربون في سبيل الله ، هذا الى ما تزيوا به من لباس التقوى ، وتزينوا به من حلى الصلاح والنسك والزهد في متاع الحياة الدنيا ، وغير ذلك مما يدل على زهدهم في الحياة الدنيـــا وحبهم في الآخرة ، ورغبتهم في الوصول اليها والعمل في سبيلها .

هذا (حوثرة)اول من خرج بعد قتل الامام علي رضوان الله عليه ، ويدعوه ابوه الى الطاعة والدخول في الجماعة فيأبى ، فأداره فصمم . فقال له :

ــ يا بني أجيئك بابنك فلعلك تراه فتحن اليه ..

فقال : يا ابت انا والله الى طعنة نافذة انقلب فيها على كعوب الرمح أشوق مني الى ابني[1] ..

وقال ابو بلال مرداس بن ادية أحد رؤسائهم الكبار الأولين في عبد الله بن وهب الراسي قائد الخوارج الذين خرجوا على الامام علي كرم الله وجهه :

ابعد (ابن وهب) ذي النزاهة والتقى
ومن خاض في تلك الحروب المهالـكا
احب بقـــاء أو أُرجّي سلامة   وقد قتلوا زيد بن حصن ومالـكا
فيا رب سلّم نيـــتي وبصيرتي   وهب لي التقى حتى الاقي اولئكا[2]

وكان مرداس هذا مجتهداً كثير الصواب في لفظه ، وكان

(١) الكامل جزء ٢ صفحة ١٥٠ .
(٢) الكامل جزء ٢ صفحة ١٦٥ .

من التقشف والتنسك والعبـــادة بمكان عظيم ، حتى انتحلته الشيعة والمعتزلة فضلاً عن الخوارج . وفيه يقول عمران بن حطان :

يا عين ابكي لمرداس ومصرعه   يا رب مرداس اجعلني كمرداس
تركتني هائمـــاً ابكي لمرزئتي   في منزل موحش من بعد إيناس
انكرت بعدك ما قد كنت اعرفه
ما الناس بعدك يا مرداس بالناس[1]

وكان المستورد كثير الصلاة شديد الاجتهاد ، وله آداب يوصي بها وهي محفوظة عنه ، منها قوله : لو مُلكت الارض بحذافيرها ، ثم دعيت الى ان استفيد منها خطيئة ما فعلت ..

وقال قطري بن الفجاءة :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـــا   تبيح من الكفـــار كل حريم
رأت فتية باعوا الاله نفوسهم   بجنـــات عدن عنده ونعيم[2]

تأمل صياحهم قبيل معركة النهروان امام علي كرم الله وجهه وامام اصحابه ، وتناديهم : لا تخـــاطبوهم ولا تكلموهم ، وتهيأوا للقاء الرب ، الرواح الرواح الى الجنة ..

☆

وروي ان ابن عباس لما وجهه اليهم الامام علي كرم الله وجهه ليدعوهم الى الطاعة ، رحبوا به واكرموه . فرأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود ، وعليهم قمص مرخصة[3]

---

(١) الكامل جزء ٢ صفحات ١٣٦ و ١٥٤ .
(٢) الكامل جزء ٢ صفحة ١٨٣ .
(٣) مغسولة .

وروي ان رجلاً من الخوارج طُعن فصرعه الرمح فجعل يسعى الى قاتله وهو يقول : وعجلت اليك ربي لترضى .

واعتبر مبلغ زهدهم في متاع الحياة الدنيا ، بصياحهم على من اخذ رطبة سقطت من نخلة ،وقذف بها في فمه،فلم يلبث من انتهارهم اياه ان لفظها ، وبما روى عن جماعة منهم انهم ساوموا ذمياً على جني نخلة ، فقال :

— هو لكم .

فقالوا : ما كنا لنأخذه إلا بثمن .. وغير ذلك مما روي عنهم من هذا القبيل .

وكانوا — على ما كانوا عليه من غلظ الاكباد على اعدائهم — في غاية الرقة والرحمة بعضهم على بعض ، كما يدل عليه وقوفهم على قبور اصحابهم بالنهروان ، وبكاؤهم عليهم بكاء طويلاً وترحمهم عليهم واستغفارهم لهم دائماً وأبداً ..

ويجد المطلع على تاريخهم — مع ما قدمناه من تلك الاوصاف — انهم كانوا على جانب عظيم من العلم والفهم ، وبدرجة عالية من البلاغة والبيان : ذكروا ان عبد الملك بن مروان — وكان من اكثر الناس علماً وأبرعهم أدباً وأحسنهم ديناً — أتي برجل منهم فباحثه رأى منه ما شاء علماً وفهماً ، وادباً وذكاء ، فرغب فيه واستدعاه الى الرجوع من مذهبه فرآه مستبصراً محققاً ، فزاده في الاستدعاء .

فقال له : لتغنك الاولى عن الثانية ، وقد قلت فسمعتُ ،

فاسمع اقل .

قال له : قل .

فجعل يبسط له من قول الخوارج . وزيّن له من مذهبهم بلسان طلق والفاظ بينة ومعان قريبة .

فقال عبد الملك بعد ذلك على معرفته :

ـ لقد كاد يوقع في خاطري ان الجنة خلقت لهم، واني اولى بالجهاد منهم ، ثم رجعت الى ما ثبت الله عليّ من الحجة، وقرر في قلبي من الحق فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطني في الدنيا ومكن لنا فيها ، واراك لست تجيب بالقول ، والله لاقتلنك ان لم تطع .

فبينما عبد الملك في ذلك ، اذ دُخل عليه بابنه مروان وهو يبكي لأن مؤدبه ضربه . فشق ذلك عليه . فاقبل الخارجي عليه وقال :

ـ دعه يبك ، فانه ارحب لشدقه واصح لدماغه واذهب لصوته واحرى الا تأبى عليه عينه اذا حضرته طاعة ربه فاستدعى عبرتها .

فاعجب ذلك من قوله عبد الملك . فقال له متعجباً :

ـ اما يشغلك ما انت فيه عن هذا ؟

فقال : ما ينبغي ان يشغل المؤمن عن قول الحق شيء .

فأمر عبد الملك بحبسه وصفح عن قتله .

وقال يعتذر اليه :لولا ان تفسد بالفاظك اكثر رعيتي ما حبستك.

ثم قال عبد الملك : من شككني ووهمني حتى مالت بي عصمة الله ، فغير بعيد ان يستهوي من بعدي[1]

*

(١) الكامل جزء ٢ ص ١٤٦ .

ويروى ان (عمران بن حطان) رأس القعدة من الصفرية ، وخطيبهم وشاعرهم نزل عند (روح بن زنباع) سمير عبد الملك بن مروان ، وهو لا يعرفه ، فكان روح لا يسمع شعراً نادراً ولا حديثاً غريباً عند عبد الملك فيسأل عنه عمران إلا عرفه وزاد فيه ، فذكر ذلك لعبد الملك . فقال له :

— خبرني ببعض اخباره .

فخبره وانشده : فقال : « ضيفك عمران بن حطان ، اذهب فجئني به » .

فرجع اليه فقال : ان امير المؤمنين قد أحب ان يراك .

فقال له : امض فاني بالاثر ...

فرجع روح الى عبد الملك فاخبره .

فقال عبد الملك : اما انك سترجع فلا تجده .

فرجع وقد ارتحل وخلف له ابيات تجدها في كتب الادب ..

وكان نافع بن الازرق ينتجع عبدالله بن عباس ، ويتباحث معه في مسائل كثيرة في التفسير واللغة ، ذكر المبرد جملة منها في (الكامل) وساق الامام الراغب في (سفينته) طائفة عظيمة منها[1] .

الرأي في الخوارج

والرأي عندنا ان الخوارج شوهوا محاسن الاسلام تشويهاً غريباً ، فان هذا الاغراق في التأويل والاجتهاد .. أخرجهم عن روح الاسلام

---

(١) نقلها عن الاتقان للسيوطي .

وجماله واعتداله ، وهم في تعمقهم قد سلكوا طريقاً ما قال به محمد سيد العرب ولا دعا اليه القرآن ، وأما التقوى التي كانوا يظهرون بها فهي من قبيل التقوى العمياء ، والصلاح الذي كانوا يزينون به في الظاهر ، كان ظاهر التأويل بادي الزخرفة ، وقد طمعوا في الجنة وأرادوا السعي لها عن طريق التعمق والتشدد والغلو في الدين غلواً أخرجهم منه ، ومجاوزة الحد توقع في الضد .

وقد رأينا في تاريخهم الاول .. كيف قتلوا عبد الله بن خبّاب وامرأته ، وكيف كانوا يستحلون اموال المسلمين ويحترمون اموال الذميين ، وكيف كانوا يستعرضون الموحدين ويقتلون رجالهم ونساءهم واطفالهم ، وقد روي انهم كانوا يلقون الاطفال في القدور وهي تفور[1] .. وكانوا يعتقدون ان ذلك من الدين ، وانهم ينالون به الثواب من رب العالمين .

لقد كان الناس حين يرونهم يعتريهم الفزع الاكبر .. ويرتاعون منهم أشد الارتياع ، ويصيح بعضهم على بعض : الحرورية الحرورية .. لينجو من ينجو ، ويهرب من يستطيع الهرب ..

والخوارج قوم ثوريون ، قصّر فهمهم عن حكمة الحكومة ، ولم يهتدوا الى مذهب سياسي يعتمدون عليه في الخروج على الولاة ، فلما عجزوا عن مثل ذلك الطريق السياسي ... زعموا ذلك الزعم الباطل ليكون مبرراً لخروجهم على الحكام من طريق الدين ، وهو أشد

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه جزء ١ صفحة ١٤٦ في رد الامام عمر ابن عبد العزيز على الخوارج .

الطرق تأثيراً في الناس ، واسرعها في اجتذاب الانصار لمن يدعو اليه ، ألم ترَ ان أولهم وهو (المخدج) انتقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انه في قسمة بعض الغنائم ، فضّل بعض القوم على بعض؟

وانما كان هذا التفضيل منه عليه الصلاة والسلام تأليفاً لقلوب الذين فُضلوا، مع علمه برسوخ الاسلام في قلوب الذين قلّ عطاؤهم عن الأولين ، فلم يفقه ذلك الخارجي هذه الحكمة العالية ، وان التمييز في هذه القسيمة هو عين العدل لانه الكفيل بالمصلحة العامة ، ثم انظر الى اولئك الذين أكرهوا علياً على التحكيم حتى اذا حكم على كره منه عظيم ، ثاروا عليه وقالوا :

«لا حكم إلا الله . .»وتأمل جوابه رضي الله عنه على ذلك: بانها « كلمة عادلة يراد بها جور » ، وانهم يريدون بها ابطال الامارة ، ولا بد من امارة برة او فاجرة .

واخيرا

وبهذا الفصل ينتهي كتابنا « الخوارج في الاسلام » وقد جمعنا فيه كل ما تفرق في كتب الادب من اخبارهم ومذاهبهم وحروبهم وآدابهم حتى انهيارهم وفشلهم وتمزقهم ، وقد اختصرنا القول في فرقهم ،وهي كثيرة يجد القراء اسماءها ومذاهبها في كتاب الملل والنحل للشهرستاني ، وفي الفصل في الملل والنحل لابن حزم ، وفي كتاب الفرق بين الفرق للبغدادي وغيره من المصادر التي عنيت بالمذاهب المختلفة . .

واذا كان لنا ما نقوله في ختام كتابنا هذا .. فهو ان الثورات الخارجية قد شلّت الزحوف العربية في اول عهدها في الفتوح،ولولا هذه الحروب الداخلية الـــتي دهمت العرب في اول عهدهم بالفتوح والزحوف لتبدل وجه التاريخ ، ولاستطاع هذا الشعب ان يجمع بين المشرق والمغرب ...

انتهى

مصادر الكتاب

اعتمدنا في كتابنا هذا على مصادر كثيرة اهمها (الكتب الشوامخ) في تاريخ العرب والاسلام، كتاريخ الطبري وابن الاثير، والبداية والنهاية ، ومروج الذهب للمسعودي، وتاريخ اليعقوبي، والملل والنحل ، والفرق بين الفرق وغيرها ، كما اعتمدنا كثيراً من كتب الأدب لان اخبار الخوارج موزعة فيها، كالاغاني ، والكامل للمبرد، والبيان والتبيين للجاحظ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، وغيرها وهي كثيرة ..

واعتمدنا من المصادر الغربية ، دائرة المعارف الاسلامية ، ودائرة المعارف البريطانية ــ الطبعة ١٤ ــ وتاريخ التواريخ الذي اصدرته شركة دائرة المعارف البريطانية ، وما صدر للمستشرقين في هذا الباب من رسائل وبحوث نشرت في بعض صحفهم التي تعنى بالتاريخ الاسلامي ..

واما المصادر العربية المعاصرة فهي قليلة في هذا الموضوع ، وان كان بعض كتاب مصر قد عرضوا في السنوات المتأخرة الى ادب الخوارج والى شيء من تعاليمهم وتاريخهم ...

فهرس الكتاب

الصفحة

الصفحة	
٣	مقدمة الكتاب
٩	الشرارة
٣٠	الثورات الاولى
٥٥	دستور الخوارج
٦٩	المهلب والخوارج
٧٠	النار والحرب
٩٢	شبيب الخارجي
١٠٢	نهاية الخوارج
١١٥	تعاليم الخوارج
١٢٨	الكلمة الاخيرة
١٤٠	مصادر الكتاب

صدر حديثاً

رأس المال

نقد الاقتصاد السياسي
الاساس الفكري للاشتراكية

موسوعه اقتصادية علمية شاملة

الترجمة الحرفية الكاملة
لاول مرة في اللغة العربية

تصدر في عشرة اقسام متتالية

الثمن ٣٠٠ ق.ل للجزء

منشورات
مكتبة المعارف في بيروت